9

سلسلة

مَوَازِينَ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[المؤمنون: 1]

كيف يزن القرآن ما نعدُه فوزًا وخسارة؟

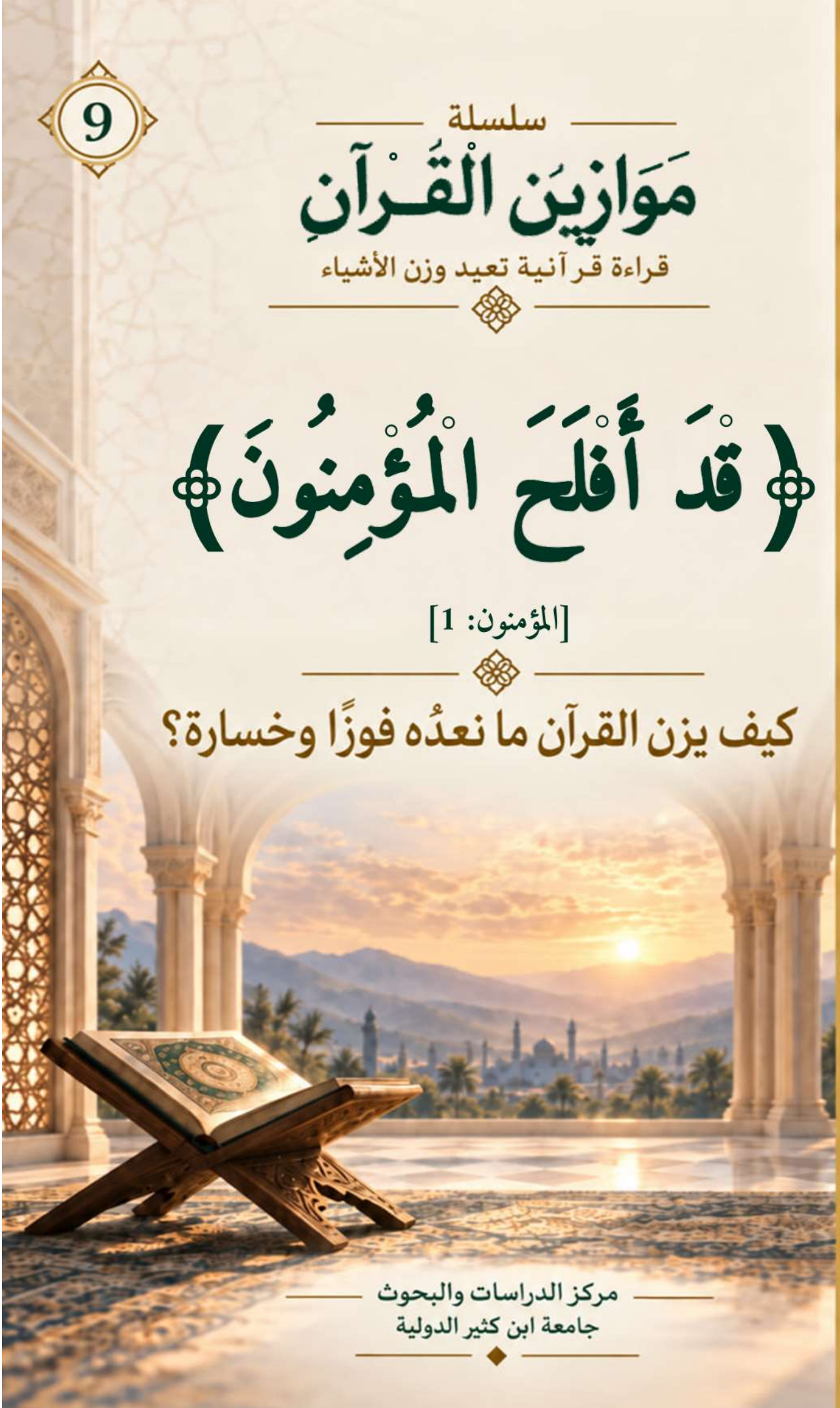

مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية

السلسلة: موازين القرآن.

اسم الكتاب: قد أفلح المؤمنون – كيف يزن القرآن ما نعده فوزًا وخسارة؟

رقم الكتاب في السلسلة: التاسع.

الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية.

هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).

يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه وتوزيعه وإعادة نشره وطباعته للأغراض غير التجارية دون إذن مسبق، بشرط المحافظة على نسبته إلى أصحابه، وعدم نشر نسخ معدلة أو مترجمة منه.

ويرحب المركز بطلبات طباعة هذا الكتاب ونشره لأغراض تجارية، شريطة الحصول على إذن كتابي مسبق من المركز، مع المحافظة على النص كاملًا دون تعديل أو حذف أو إضافة، ونسبته إلى أصحابه، ما لم يُتفق كتابةً على خلاف ذلك.

رابط الترخيص https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar

النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:

https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/kd-aflh-almomnon

إعداد السلسلة

مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية

الإشراف العلمي على المركز

أ.د. عبدالله بن مبارك آل سيف

الفريق العلمي للمركز

د. عبدالله سالم باهمام

د. صهيب لولح

د. شادية عبدالله بابكر

إسلام موسى

عادل بافرج

المراجعة والتحكيم العلمي

يراجع المركز إصداراته بمحكمين خارجيين عند الحاجة.

كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية.

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء

قد أفلح المؤمنون — هذا الكتاب

- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

بين يدي السلسلة والكتاب

مركز البحوث والدراسات

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز البحوث والدراسات في جامعة ابن كثير الدولية للعلوم الإنسانية والإسلامية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤية صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع، من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة موازين القرآن: مشروعًا تأليفيًا يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحيٌ مبين تأتي شارحةً ومجسدةً ومؤسسةً للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى، ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

تدخل إلى حياة الإنسان كلمات تبدو كأن معناها واضح لا يحتاج إلى مراجعة: نجح، خسر، فاز، سبق، ضاعت عليه الفرصة، خرج رابحًا. وبعضها يصف شيئًا حقيقيًا؛ فقد يربح المرء مالًا، ويفوته منصب، ويتقدم في منافسة أو يتأخر عنها. لكن الخطر يبدأ حين تمتد النتيجة الجزئية حتى تستولي على الاسم الأكبر، فيصبح ما كثر في اليد هو الفوز، وما فات منها هو الخسارة، ويصبح إعجاب الناس أو اتساع الرزق أو ظهور النتيجة شهادةً على قيمة الطريق كله.

من هنا ينطلق سؤال هذا الكتاب: من يملك أن يسمّي الفوز والخسران؟ وما الذي يحدث للقلب حين يتعلم أن يرى النتيجة في حجمها، ثم يرد الحكم الأخير إلى الله؟

لا يريد الكتاب أن يعلّم القارئ إنكار الدنيا، ولا أن يسمي كل نقص ربحًا وكل ألم فوزًا. المال نعمة، والعافية نعمة، والقبول والنصر والنجاح في مواضعها أشياء يفرح بها المؤمن ويشكر الله عليها. لكنه يسأل عن السلطة التي يمنحها القلب لهذه الأشياء: متى تكون وصفًا لجزء من الحياة، ومتى تتحول من غير أن نشعر إلى ميزان يحكم على الإنسان والطريق والمآل؟

ولهذا يتقدم القرآن في هذا الكتاب بوصفه منشئ الميزان لا شاهدًا عليه. لا تُجمع الآيات لتؤيد فكرة سبقت إليها الكتابة، بل يُنظر في ألفاظ الفلاح والفوز والخسران والإيثار والتغابن، وفي مشاهدها وسياقاتها وصلاتها، حتى يظهر ما تصنعه مجتمعةً في رؤية الإنسان. وتأتي السنة وحيًا مبينًا؛ فقد تنقل الميزان من الآية إلى وجه إنسان ومجلس وبيت وطريق، وتجعل ما قرره القرآن يُرى في حياة النبي ﷺ وأصحابه وفي كلماته الجامعة.

ويستعين الكتاب بأصول التفسير وكلام أهل العلم في تحرير دلالة المراسي وسياقاتها، مع توثيق النقول والإحالات في مواضعها؛ ليبقى كلام المفسر متميزًا من صياغة المؤلف، ويبقى التأمل تابعًا لدلالة النص لا متقدمًا عليها.

ولا يحتاج القارئ أن يتعامل مع الصفحات الآتية كقاموس لمصطلحات النجاح، ولا كقائمة أحكام جاهزة يضعها على الناس. المقصود أقرب إلى النفس من ذلك: أن يراقب الأسماء وهي تتكون في قلبه. ماذا يسمي ربحًا حين تفتح له الدنيا؟ ماذا يسمي خسارة حين يفوته ما يحب؟ ماذا يحدث لحكمه حين يرى غيره أكثر مالًا أو أوسع قبولًا؟ وماذا يبقى من هذه الأسماء إذا حضر في قلبه علم الله، وكتاب العمل، والميزان، والدار الآخرة، ورضوان الله؟

فهذا الكتاب ليس دعوةً إلى الهرب من الحياة، بل إلى أن تعيشها وأنت تعرف من يملك الحكم الأخير عليها.

محتويات الكتاب

بيانات النشر والحقوق 2

القسم الأول 1

مَنْ يَمْلِكُ أَنْ يُسَمِّي؟ 1

في يوم الزينة 1

الكلمة التي عادت إلى أصحابها 4

فوز على قدر الحظ 5

حين يصدر الوحي حكمه 7

القسم الثاني 11

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ 11

من الذي سمّاه الله مفلحًا؟ 11

حين استدارت الصفوف 14

من الذي يقود هذا الإنسان؟ 16

القسم الثالث 20

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ 20

كيف يرافقك القرآن وأنت تسير؟ 20

أن يبقى قلبك مع الله في كل الأحوال 20

أن تعبده، وتجاهد نفسك، وتبقى في الطريق 22

أن يبقى ميزان الله حاكمًا حين تدخل الشهوة والمال والمصلحة والناس 24

وإذا زللت، فارجع 26

القسم الرابع 29

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ 29

ما الذي يستحق أن يريده قلبك، ويفرح به، وينافس عليه؟ 29

حين ترى ما عند غيرك 32

ليلة كان في البيت فيها قوت الصبية..... 33
سباق لا يضيق بكثرة السابقين..... 35
القسم الخامس..... 38
﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾..... 38
ما الذي يجعل السعي مقبولًا، وكيف لا يضيع؟..... 38
حين لا يضيع ما لا يراه الناس..... 40
رجل خرج من بيته ولم يصل..... 42
أقدام تمشي، ورجال حبسهم المرض..... 44
الشكر الذي لم يطلبوه..... 45
القسم السادس..... 49
﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾..... 49
ماذا يمكن أن يربح الإنسان ويخسر نفسه؟..... 49
حين تنشغل بما لك عن نفسك..... 50
حين يكون الدين على حرف..... 51
«أتدرون ما المفلس؟»..... 52
حين يضل السعي وصاحبه يظن أنه يحسن..... 54
ماذا يبقى إذا خسرت نفسك؟..... 55
القسم السابع..... 57
﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾..... 57
ما الذي يبقى لك حين تترك كل شيء؟..... 57
الشيء الذي يخرج منك وقد يبدأ بقاؤه..... 59
حين يكون رأس مالك صحتك ووقتك..... 60
يد تعطي، وقلب يفتقر..... 61
تجارة لا تبور..... 64
الصفقة التي وعد الله بها الجنة..... 65
خيرٌ أملًا..... 67

القسم الثامن 70
﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ 70
لماذا تخطئ العين ولو عرف القلب؟ 70
ما لا تراه الصورة 71
حين تتحول النعمة إلى شهادة 73
حتى الخير الذي تراه لا تعرف كل وزنه 75
يوم خرج قارون في زينته 76
عين تتعلم أن ترى مع الوحي 81
القسم التاسع 83
﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ 83
حين ينكشف الحكم 83
الكتاب الذي لا ينسى 84
ميزان لا يضيع عنده مثقال حبة 86
حين يعود اسم الفلاح أمام الميزان 87
﴿فَقَدْ فَازَ﴾ 89
﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ 90
حين يعود القلب كله إلى ربه 92

القسم الأول

مَنْ يَمْلِكُ أَنْ يُسَمِّي؟

في يوم الزينة

اجتمع الناس ضحى في يوم الزينة. لم يكن الموعد خفيًّا ولا عابرًا؛ كان يومًا اختير ليُرى، وجُمعت له العيون، وجاء السحرة صفًّا. موسى عليه السلام في جانب، وسحرة فرعون في الجانب الآخر، والجمهور ينتظر ما تنتظره العيون في مثل هذه اللحظات: من يغلب؟

وفي مثل هذه المشاهد يضيق العالم سريعًا حتى يصير في حجم الساحة. ما يقع أمام العين يبدو كأنه كل ما ينبغي أن يدخل في الحكم: من ظهر؟ من صفق له الناس؟ من خرج مرفوع الرأس؟ ومن خرج وقد انطفأ ذكره؟ وحين تكون الصورة بهذا الامتلاء يكون من السهل أن تتجاوز كونها نتيجة إلى أن تصبح تفسيرًا للحياة كلها.

لكن موسى، قبل أن تبدأ الأيدي بالإلقاء، قال كلمة في النتيجة من موضع آخر:

﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طه: 61].

الخيبة هنا لم تنتظر آخر العرض. لم تُعلّق على من سيصفق له الناس، ولا على من سيغادر الساحة مرفوع الرأس. هناك شيء أسبق من الصورة التي ستملأ العين: صدق مع الله أو افتراء عليه. وكأن الآية تفتح في قلب القارئ منذ البداية نافذة أخرى لا تطل على الساحة وحدها.

أما السحرة فتنازعوا أمرهم، وأسروا النجوى، ثم خرجوا إلى اللحظة بمعيار المنافسة نفسه:

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طه: 64].

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: 64].

من علا على خصمه في هذا اليوم فقد ظفر بما جاء يطلبه. وهذا وصف مفهوم داخل حدود المنافسة؛ فالناس يقولون عن متسابق إنه فاز، وعن تجارة إنها ربحت، وعن فريق إنه غلب. ولا يحتاج الإيمان إلى إفساد اللغة حتى يصحح الميزان.

فإذا تمددت النتيجة الجزئية حتى استولت على الاسم الأكبر تبدل شيء في القلب. لا يعود الكلام: «غلب اليوم»، بل: إذن هو المفلح. ولا: «خسر هذه الجولة»، بل: إذن طريقه هو الخاسر. الواقعة لم تتغير؛ الذي اتسع هو الاسم حتى صار يقول أكثر مما تسمح به.

ثم أُلقيت الحبال والعصي. لم يكن ما رأته العيون هيّنًا؛ ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، حتى أوجس موسى في نفسه خيفة. القرآن لا يمحو وقع الصورة من أجل أن يعلمك ألا تنخدع بها؛ يثبت أن المشهد أثر حتى في نفس موسى عليه السلام، ثم يأتي التصحيح وهو في قلب المشهد لا خارجه:

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: 68-69].[1]

في دقائق معدودة سُمعت كلمة الفلاح على لسانين. قال أصحاب المنافسة: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾. وجاء الوحي: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. لم ينكر القرآن أن أحد الفريقين سيظهر على الآخر في ذلك الموطن؛ لكنه منع هذا الظهور من أن يستقل بالحكم على حقيقة الطريق وعاقبته.

ثم وقع ما هو أعمق من هزيمة السحر:

(1) قال الطبري: «ولا يظفر الساحر بسحره بما طلب أين كان».

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: 70].

الرجال الذين دخلوا الميدان وهم يتحدثون عن الاستعلاء لم يغادروا فقط رأيًا قديمًا؛ غادروا الميزان الذي كان يعطي تلك الكلمات معناها في قلوبهم.

ولو أن الإيمان الجديد قادهم فورًا إلى أمان ومال ومكانة، لكان من السهل على العين القديمة أن تستوعب التحول بلغتها هي: اختاروا طريقًا فربحوا. لكن المشهد لم يمنحهم هذه الراحة.

صاح فرعون:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: 71].

لو بقي الاسم القديم في قلوبهم لكان هذا التهديد كافيًا ليعيد كل شيء إلى موضعه الأول: فرعون هو الأعلى، والنجاة في البقاء معه، والخسارة في مفارقته. لكن البينات لم تغير رأيًا عندهم فحسب؛ غيرت الشيء الذي يمنحونه حق المقارنة. قالوا:

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: 72].

لم يقولوا إن فرعون لا يستطيع أن يؤلمهم. ولم يقولوا إن ما سيفعله لا وزن له في الحس. إنما وضعوا سلطانه في حدّه: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. ثم قالوا الكلمة التي تعيد ترتيب المشهد كله:

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 73].

لم تصبح السيوف أو الصلب وهمًا، ولم يصيروا عاجزين عن الشعور بالألم، ولم تتبدل الظروف فجأة لصالحهم. الذي تبدل هو حق هذه الظروف في أن تمنح حياتهم اسمها الأخير.

بقيت الغلبة في حجمها: شيئًا تراه العين ويؤلم أو يفرح، لا كلمة أخيرة على حياة الإنسان. وما قد يضل القلب بعد ذلك ليس دائمًا مشهدًا يغلب عينه؛ قد تكون كلمة تدخل إليه قبل أن يختار.

الكلمة التي عادت إلى أصحابها

في قصة شعيب عليه السلام قال الملأ الذين كفروا من قومه محذّرين من أراد اتباع شعيب:

﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90].

الخسارة كلمة ثقيلة. لا تقول لك فقط إن الرأي غير صحيح؛ تجعل الطريق نفسه يبدو مكلفًا قبل أن تمشي فيه.

وكانت دعوة شعيب قد مست دين قومه وما ألفوه في معاشهم ومعاملاتهم، فجاء التحذير في صورة كلمة يكرهها كل إنسان لنفسه: إن تبعتموه خسرتم.

تخيل قلب إنسان لم يحسم أمره بعد. يرى في الدعوة شيئًا من الحق، ثم يسمع من حوله أن ثمن هذا الحق فقد لما يألفه أو لما يملك. قبل أن يناقش الدليل يبدأ في داخله حساب آخر: ماذا سأفقد لو صدقت؟ وكيف سأبدو لو خرجت عن الجماعة؟ وهل أستطيع أن أتحمل ما يسمونه خسارة؟

أحيانًا لا يحتاج الصادّ عن الحق إلى برهان طويل على بطلانه؛ يكفيه أن ينجح في تسمية ثمنه. فإذا استقرت الكلمة صار القلب يميل قبل أن يتكلم العقل، وصار القرار يجد طريقًا ممهدًا داخله.

ثم لا يطيل القرآن الطريق بين الدعوى والحكم:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 92].

قالوا: إن اتبعتم شعيبًا فأنتم الخاسرون، ثم جاء حكم الله فردَّ وصف الخسارة على الذين أطلقوه: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

في يوم الزينة كانت العين مملوءة بصورة الغلبة. أما هنا فالكلمة تسبق الفعل؛ تُسمى الطاعة خسارة، فيبدأ القلب يشعر بثقلها قبل أن يخطو إليها.

ولهذا ليست الكلمات لعبة على هامش السلوك. حين يسمى ترك الحرام «ضياع فرصة»، والصدق الذي يكلف صاحبه «سذاجة»، والموقف الذي يرضي الله لكنه ينقص شيئًا من المكانة «فشلًا»، لا يكون الاسم قد وصف القرار بعد وقوعه فقط؛ ربما كان قد شارك في صنعه.

وقد يظل الإنسان يكرر هذه الأسماء حتى لا يعود يسمعها بوصفها أحكامًا قابلة للمراجعة. تصبح هي اللغة الطبيعية في داخله، ثم ينظر من خلالها إلى نفسه والناس. عندئذ تكون استعادة الاسم جزءًا من استعادة القرار.

لكن الاسم لا يتحرك دائمًا بضغط الجماعة. أحيانًا يكون أكثر خفاءً: يتبدل في قلب الإنسان بحسب ما عاد عليه هو من الحدث.

فوز على قدر الحظ

في سورة النساء يكشف القرآن صوت المبطئ المنافق الذي ينظر إلى ما يقع للمؤمنين من زاوية حظه هو. إن أصابتهم مصيبة قال:

﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 72].

فإذا أصابهم فضل من الله تبدلت عبارته:

﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 73].

المصيبة عندهم تجعل غيابه نعمة، والفضل الذي نالوه يجعل الغياب حسرة. لم يتغير الحق الذي خرجوا له؛ الذي تغير هو نصيبه الشخصي من النتيجة، فصارت ألفاظه تتبدل بتبدل نصيبه من الحدث: يرفع ما نفعه، ويخفض ما فاته.

ثم تأتي الآية التالية فتفتح ما لا يستطيع هذا الحساب أن يراه وحده:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74].

﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ نتيجتان لا تتساويان في الصورة الدنيوية، ومع ذلك لا يجعل القرآن إحداهما وحدها بوابة الأجر، فلا يصير الحظ الشخصي مترجمًا أمينًا لقيمة الطريق.

هذا لا يعني أن القتل والغلبة سواء في كل اعتبار، ولا أن المؤمن لا يحب النصر ولا يطلبه. إنما يعني أن النتيجة التي تحبها لا تملك وحدها أن تقول لك ما كان لله في الطريق، ولا ما كتبه الله لصاحبه.

والصورة أقرب إلى حياتنا مما تبدو. قد تقف أمام باب تعلم أن دخوله لا يرضي الله، فتتركه. لا تسمع تصفيقًا لأنك تركت، ولا يظهر في هاتفك رقم يقول إن قرارك ارتفع في الميزان. تمضي الأيام، ثم ترى من دخل من ذلك الباب قد توسع رزقه أو علا اسمه.

في تلك اللحظة قد لا تحتاج النفس إلى حجة كاملة كي تهتز. يكفيها مشهد واحد: سيارة أجدد، حضور أوسع، رقم أعلى. ثم تخرج من داخلها جملة أسرع من التفكر: هو ربح، وأنا خسرت.

ربما تكون الصفقة قد فاتتك فعلًا، وربما كان المال الذي حصل عليه غيرك مالًا حقيقيًّا لا وهمًا. الإيمان لا يطلب منك أن تنكر الحساب، ولا أن تسمي النقص زيادة. لكنه يمنع الجزء من أن يتكلم بلسان الكل.

هناك فرق بعيد بين أن تقول: «خسرت هذه الصفقة»، وأن تقول في أعماقك: «أنا الخاسر». وبين أن تصف مشروعًا بأنه نجح، وأن تجعل نجاحه شهادة بأن الطريق كله قد نجح عند الله.

ومتى دخل هذا الفرق إلى القلب صار للإنسان متسع بين الحدث والحكم؛ يرى ما وقع ولا يكذبه، لكنه لا يمنحه سلطة أكثر مما يملك، فيبقى الحق ثابتًا ولو تبدل نصيبه الشخصي منه.

تتغير الصور، لكن السؤال يقترب من القلب أكثر: إذا لم تكن الغلبة وحدها، ولا أسماء الجماعة، ولا الحظ الشخصي، هي التي تمنح الحياة حكمها الأخير، فماذا يقول الوحي عن الفلاح والخسر؟

حين يصدر الوحي حكمه

يقسم القرآن بالعصر، ثم يبدأ من موضع لا يبدأ منه خطاب النجاح عادة:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: 1-3].

لا تقول السورة إن الإنسان في ربح ثم تبحث عن الظروف التي قد تفسده. تبدأ من الخسر، ثم تفتح الاستثناء. وفجأة يصبح السؤال أوسع من خسارة صفقة أو مكانة: ماذا يحدث للإنسان نفسه وهو يمر في الزمن؟

الشيء الذي يجري في الخلفية لا يتوقف لأحد. يوم ينتهي ثم لا يعود، وساعة تخرج من العمر سواء امتلأت بطاعة أو ذهبت في غفلة. لا يستطيع الإنسان أن يخزن أيامه خامًا حتى يقرر لاحقًا ماذا يفعل بها؛ العمر يُنفق وهو يفكر في إنفاقه.

ولهذا لا تحتاج السورة إلى حادثة ضخمة حتى تضع الإنسان أمام ميزانها. يكفي يوم عادي: صلاة أُديت بقلب حاضر أو مرت عادة، كلمة حق قيلت أو أُجلت، معروف قُدّم أو سُوّف، ساعة صينت أو ذهبت فيما لا ينفع. الخسر قد يدخل في هدوء، لا لأن كل لحظة لم تمتلئ بعمل ظاهر خسارة، بل لأن العمر هو المجال الذي لا يتكرر.

ثم لا يترك القرآن القلب مذعورًا من الزمن. الاستثناء مفتوح: إيمان، وعمل صالح، وحق يتجاوز الفرد إلى التواصي، وصبر يمنع الطريق من أن ينكسر عند أول كلفة. ما دام في العمر بقية فباب النجاة ليس ذكرى عن أيام فاتت، بل عملًا فيما بقي.

تقول لك سورة العصر إن ما مضى لا يعود، ثم تفتح في الجملة نفسها طريق النجاة فيما بقي. يخيفك ضياع العمر، لكنه لا يسلمك إلى اليأس.

ومن العمر إلى النفس نفسها:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9-10].

قد يزيد ما حول الإنسان بينما تتناقص نفسه. قد يتسع اسمه ويضيق قلبه. قد يحسن حديث الناس عنه بينما يصبح هو أقل صدقًا، أو أشد تعلقًا، أو أضعف أمام شهوة يعرف موضعها من أمر الله. وقد يفقد شيئًا مما تحبه الدنيا ثم يخرج من الامتحان أصدق وأطهر وأقرب إلى الله.

لا يصبح الخارج بلا قيمة: المال نعمة، والصحة نعمة، والقبول قد يكون باب خير، والنصر محبوب في موضعه. لكن وراء كل ذلك سؤال لا تلتقطه العين الاجتماعية بسهولة: ماذا حدث لنفسك وأنت تحصل؟ وماذا حدث لها وأنت تفقد؟

ويبقى الإنسان لا يزن نفسه في فراغ. يعيش بين عيون الناس، وفي عالم تفتح فيه الأبواب لبعض الأسماء أسرع من غيرها، ويُسمع لبعض الأصوات قبل أن يُنظر فيما تقول. ومع التكرار قد تتحول هذه الآثار من وقائع يراها إلى وزن للإنسان نفسه من غير أن يشعر.

وفي صحيح البخاري جاء المشهد بنصه: مرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفَّع، وإن قال أن يُستمع. قال: ثم سكت، فمرَّ رجلٌ من فقراء المسلمين، فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشفَّع، وإن قال أن لا يُستمع. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا**» رواه البخاري (5091).

لم تختف المكانة الاجتماعية من الواقع حين نطق النبي ﷺ بهذا الحكم، ولم تصبح الأبواب التي تفتح للأول وهمًا. لكن شيئًا انكسر في سلطان الصورة: مكانة الرجل عند الناس لا تكشف وحدها قدره عند الله، وقلة حظه من وجاهتهم لا تعني قلة قدره عند الله.

مر رجلان أمام العين نفسها، فأصدرت العين الاجتماعية حكمها سريعًا، ثم جاء الحكم النبوي من جهة لا تصل إليها تلك العين. وبعد ذلك يصعب ألا يسأل القارئ نفسه: كم مرة تسللت إليه قيمة إنسان من مقدار ما يلتفت إليه الناس؟

وفي موقف آخر جاء رجل يسأل النبي ﷺ عن فرائض الإسلام، فلما عزم على أن يأتي بما فرض الله عليه ولا ينقص منه قال ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ» رواه البخاري (46) ومسلم (11).

لا مشهد من الوجاهة هنا، ولا كثرة تتكلم. رجل يسأل عما فرض الله، وصدق يُنتظر منه في الوفاء، وتأتي الكلمة نفسها: أفلح.

ثم يبقى للقرآن أن يفتح صورتها الأوسع في الإنسان الذي سماه الله مفلحًا.

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1].

لم تعد الكلمة لفظًا عامًا؛ صار في القلب شوق إلى أن يرى الإنسان الذي سماه الله بهذا الاسم.

ويبدأ القرآن من موضع قد لا تصنع له الدنيا مشهدًا كبيرًا:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 2-3].

إنسان واقف بين يدي ربه. لا جمهور حوله، ولا رقم يعلن خشوعه، ولا صورة تستطيع أن تنقل ما في قلبه كاملًا.

أول ملامح الفلاح تقع في مكان قد يخفى على أكثر الناس.

ثم يخرج القرآن معه إلى يومه: يعرض عن اللغو، ويؤدي ما عليه، ويحفظ شهوته، ويرعى أمانته وعهده، ويعود إلى صلاته محافظًا. تتوزع الصورة بين القلب والجوارح، وبين ما يفعله وما يتركه، وبين علاقته بربه وعلاقته بالناس.

لا تجمع هذه الخصال لقطة واحدة يصفق لها الناس؛ إنها حياة تتكون على مهل، ويعرفها الله من أولها إلى آخرها.

قد يبدأ الفلاح بخشوع لا يراه أحد، وبأمانة كان يمكن أن تخونها من غير أن ينتبه الناس.

ثم لا يترك القرآن الفلاح معلقًا في هذه الحياة، ولا يجعل النهاية مكافأة أرضية فحسب:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 10-11].

من خشوع قد لا يراه أكثر الناس إلى ميراث الفردوس.

قيل في يوم الزينة: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾، وانتهينا إلى قول الله عن عباده: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. عاد «اليوم» إلى حجمه، واتسعت الكلمة حتى بلغت لقاء الله والخلود.

وحين يستقر في القلب من يملك الاسم، لا يبقى السؤال فقط: من أخطأ حين سمّى؟ ينفتح أمام القلب سؤال أعمق وأدفأ: من الذين سمّاهم الله نفسه مفلحين؟ وكيف يبدو الإنسان حين يصنع هدى الله فيه هذا الاسم؟

القسم الثاني

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

من الذي سمّاه الله مفلحًا؟

حين قال القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، لم يترك الفلاح كلمةً معلقة فوق نتيجة مجهولة الملامح، بل فتح أمام القلب مشهد إنسانًا ظهرت ملامح فلاحه في الخشوع، والإعراض عن اللغو، وأداء الزكاة، وحفظ الفرج، ورعاية الأمانة والعهد، والمحافظة على الصلاة، ثم ينتهي طريقه إلى الفردوس.

لكن القرآن لا يرسم صورة المفلح في سورة واحدة. تعود العبارة نفسها في مواضع متباعدة:

> ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

يفتح القرآن الجواب من أول البقرة، قبل بطولةٍ يصفق لها الناس، وقبل أن تتكلم أرقام أو نتائج:

> ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 2–5].

قبل الحكم جاء الهدى.

لم يبدأ المفلح من سؤال: ماذا سأحصل؟ بدأ من أن تكون له جهة يتلقى منها معنى الطريق. يؤمن بما لا تفتحه العين وحدها، ويقيم الصلاة، ويفتح الرزق الذي في يده بابًا للإنفاق، ويتصل قلبه بما أنزل الله، وتدخل الآخرة في يقينه قبل أن تصير مشهدًا يراه.

وهذه حياة قد يمر كثير منها بعيدًا عن أعين الناس. رجل يقوم إلى الصلاة في وقت لا يراه فيه إلا أهل بيته، ولا يتغير بذلك رقم في السوق. وامرأة تخرج من مالها شيئًا لا يعرف به أحد، فلا يعلو اسمها بالضرورة. وقلب تزاحمه الدنيا ثم يرد نفسه إلى الآخرة؛ لا يصفق له أحد على هذا الرجوع، وقد لا يعرف أحد أصلًا أن معركة وقعت.

لكن صاحب هذه الحياة لا يمشي وحده في المعنى. فوقه كلمة من ربه: ﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وفي هذه الإضافة نفسها يفتح المعنى بابه: من ربهم. ليست الطريق مجرد قائمة يكلَّف الإنسان أن يحفظها ثم يترك لنفسه. ربه يهديه؛ يريه ما لا تراه عينه وحدها، ويرد قلبه حين يشتبه عليه الطريق، ويفتح له من كلامه ما يعرف به أين يضع قدمه. قد يستيقظ الإنسان في يوم تمتلئ فيه حياته بأصوات كثيرة: رغبة، وخوف، ونصيحة، وعادة، وما ينتظره الناس منه. وفي وسط هذا كله لا يكون أعظم ما عنده أنه يملك جوابًا لكل شيء، بل أن له ربًّا يهديه.

وقد يمر على آية كان يعرفها منذ زمن، ثم تقع في يومه موقعًا لم تقع فيه من قبل. كأنها لم تعد خبرًا يعرفه، بل يدًا ترده إلى الطريق. أو يدخل الصلاة مشتت القلب، ثم يخرج منها وقد عاد شيء في داخله إلى موضعه. لا يسمّي الناس هذا انتصارًا، لكن القلب يعرف معنى أن يُهدى بعد حيرة، وأن يُرد إلى الله بعد تشتت.

ثم يأتي الحكم:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5].

الاسم الذي كان يمكن أن يُعطى لمن علا صوته أو اتسع نصيبه، يضعه القرآن هنا فوق إنسان بدأ من ﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وهذا يغيّر السؤال كله. لم يعد الأمر أن تضيف إلى حياتك مجموعة أعمال تسمى أعمال المفلحين، ثم تبقى أنت كما أنت. السؤال أعمق: ماذا يصنع بك الهدى إذا دخل حياتك؟

قد يعرف الإنسان حكم الله، ويقر بأن الوحي حق، ثم تبقى بين المعرفة وبين أن يسمح لهذا الحق أن يعيد ترتيب قراره مسافة طويلة. وفي هذه المسافة بالذات يعرض القرآن صورة أخرى للمفلحين.

في سورة النور يتحدث السياق عن قوم يقولون إنهم آمنوا بالله وبالرسول وأطاعوا، ثم يتولى فريق منهم. وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ظهر ما كان مستورًا: إن يكن لهم الحق يأتوا مذعنين، وإن يكن الحكم على غير ما يريدون تغير موقفهم. ثم يقول الله عن المؤمنين:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

يسهل على الإنسان أن يحب حكم الله حين يأتي الحكم موافقًا لما كان يريده. لا يشعر يومها أنه سلّم شيئًا. لكن الآية تضع الطاعة في موضع أشد صدقًا: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾؛ موضع خصومة، ومصلحة، وحق يتنازعه طرفان، وكل نفس تحب أن تخرج منه وهي صاحبة الحق.

قد يدخل المرء خلافًا وهو يقول في نفسه: أريد حكم الله، ثم يتبين له أن الحكم لا يقف في صف رغبته. عندئذ تأتي لحظة لا يراها من حوله كاملة: قد يسكت قليلًا، وقد يشعر أن شيئًا في داخله يقاوم؛ فقد بنى كلامه، وربما أخبر من حوله أنه صاحب الحق، وتعلقت نفسه بصورة الانتصار قبل أن يعرف الحكم، ثم جاءه من الوحي ما لم يكن يرجوه لنفسه.

في هذه اللحظة لا يكون الامتحان في قدرته على شرح النص، بل في قدرته على أن ينزل من موضع الخصم إلى موضع العبد.

أن يقول بقلبه قبل لسانه: يا رب، حكمك أحب إلي من انتصاري لنفسي.

قد يخرج من المجلس وقد نقص من ماله شيء، أو سقطت دعوى كان يتمسك بها، أو اضطر أن يعتذر، أو يؤدي حقًّا كان يتمنى ألا يكون عليه. في عين الحساب القريب قد يبدو أنه خرج بأقل مما دخل. لكن القرآن يضع فوق هذه اللحظة اسمًا آخر:

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

ويستطيع الإنسان أن يسلك طريقًا آخر. أن يبدأ بعد وضوح الحكم رحلة البحث عما يبقي له ما يريد: لعل في العبارة احتمالًا، ولعل في قول آخر مخرجًا، ولعل واقعي مختلف، ولعل المسألة لم تفهم كما ينبغي.

وليس كل استفسار بعد معرفة الحكم تحايلًا؛ فقد يحتاج المرء إلى فقه وتفصيل. لكن القلب يعرف من نفسه أحيانًا الفرق بين من يسأل ليتبع، ومن يسأل حتى يجد لنفسه بابًا يبقى منه ما يريد.

عندئذ تصبح ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أكبر من جملة تقال باللسان. إنها لحظة يخرج فيها الهدى من صفحة تُقرأ إلى قرار له ثمن. هوىً في النفس كان يريد أن يكون هو الحكم الأخير، ثم يقبل أن يكون الحكم لله ورسوله.

وهذه من أشد لحظات العبودية خفاءً. قد لا يراها أحد. قد لا يتغير شيء في الغرفة. لكن طريقًا كاملًا يمكن أن يتغير داخل القلب.

حين استدارت الصفوف

وفي السنة مشهد يجعل هذه الكلمة تُرى بالعين.

كان أهل قباء في صلاة الصبح، وقد توجهوا إلى بيت المقدس كما كانوا يعرفون. الصلاة قائمة، والصفوف قد استقرت، والوجوه إلى جهة واحدة. وفي أثناء الصلاة جاءهم آتٍ فقال: «إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها». قال ابن عمر رضي الله عنهما: «وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة» رواه البخاري (403) ومسلم (526).

لم ينتظروا صلاةً أخرى حتى يستعدوا للتغيير، ولم تبقَ الاستجابة فكرةً صحيحة في أذهانهم مع بقاء الأجساد على جهتها القديمة. بلغهم أن الله أمر رسوله، فتحولت الصفوف وهي في صلاتها.

ولم يكن توجههم الأول عصيانًا حتى يصححوه؛ كانوا يصلون إلى جهةٍ أُمِروا بها. فلما جاءهم أمر الله الجديد لم يجعلوا ما ألفوه دينًا في نفسه. صدق العبودية هنا أن يبقوا مع أمر الله حين تتغير الجهة.

لم تنته الصلاة، ولم يخرجوا من الصفوف ليعيدوا ترتيب المشهد؛ استداروا فيها. الخبر الذي بلغ آذانهم ظهر في وجوههم وحركتهم: وجوه كانت إلى الشام، ثم صارت إلى الكعبة. حركة واحدة، لكن وراءها معنى كبير: وصل الخبر عن الوحي، فتغير الاتجاه.

وهذه صورة محسوسة لما تفعله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين تصير حياة. قد يكون التحول في القبلة ظاهراً تراه العيون، وقد يقع في قلب لا يراه أحد: رأي اعتاده صاحبه فيتركه، وحق ظنه لنفسه فيرده، وطريق مشى فيه زمناً ثم يغير وجهته لأن النور أراه غيرها.

ليس السؤال عندئذ: كم كنت مقتنعًا بطريقك القديم؟ بل: ماذا تفعل حين يبلغك عن ربك ما يريك جهةً أخرى؟

بدأ الهدى في البقرة إيمانًا وصلاةً وإنفاقًا ويقينًا، وبلغ في النور موضع الحكم، ثم صار في قباء حركةً غيّرت جهة الصفوف في أثناء الصلاة. لا يبقى الهدى شيئًا يعرفه الإنسان عن بعد؛ يدخل القلب، ثم الحكم، ثم الخطوة.

وحين يدخل الهدى القلب والقرار، لا يبقى أثره محبوسًا في الداخل، بل يمتد إلى القول والعمل والعلاقة بالناس. وهنا تعود عبارة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في مواضع متعددة من القرآن، فتتسع بها صورة الفلاح.

وإذا خرج الهدى من القلب إلى الناس، لم يبق الخير شأنًا فرديًا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

وإذا صار المال موضع الامتحان، ظهر الهدى في الحق الذي تؤديه، وفي الوجهة التي تقصدها بعطائك: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38].

وإذا ارتفعت الكلفة، امتد الإيمان إلى البذل بالمال والنفس: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88].

ليست هذه صورًا متفرقة، بل ملامح لمعنى واحد يتسع: هدى يبدأ في القلب إيمانًا ويقينًا، ثم يظهر في الدعوة إلى الخير، وأداء الحقوق، وإرادة وجه الله، والبذل حين ترتفع الكلفة، وهكذا يغدو الإيمان منهاجَ حياة: يقود ما يقول الإنسان، وما يعطي، وما يبذل.

من الذي يقود هذا الإنسان؟

ما الذي يجمع إنسان سورة البقرة القائم على هدى من ربه، وصاحب النور الذي قال ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ومن أراد وجه الله في عطائه، ومن بذل مع الرسول ماله ونفسه؟

ليس الجامع أنهم ابتكروا لأنفسهم صورًا مختلفة للفضيلة؛ الجامع أنهم دخلوا تحت هدى جاءهم من الله.

وتتجمع هذه المعاني في واحدة من أوسع صور المفلحين في القرآن، متعلقة بالرسول نفسه وبالنور الذي جاء معه. قال سبحانه في وصف النبي الأمي ﷺ:

> ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

هنا تتجمع الصورة في كلمة: ﴿اتَّبَعُوا﴾.

وأمام هذه الكلمة يهدأ شيء من ضجيج النفس. ليست المسألة أن تعرف أنك تحب الخير، ولا أن تكون لديك صورة جميلة عما ينبغي أن يكون عليه الإنسان. هناك رسول يُتبع، ونور منزل يُتبع.

أن تمشي خلف النور يعني أن تقبل أحيانًا أن يريك الطريق غير ما كنت تراه. لو كان النور لا يكشف إلا ما كنت تعرفه قبل أن يأتي، لما احتجت إليه.

ولهذا لا يجعل القرآن المفلح إنسانًا يخترع لنفسه الطريق الذي يعجبه ثم يطلب من الوحي أن يباركه. أمامه معروف ومنكر، وطيب وخبيث، وحدود لا تملك الشهوة ولا الجماعة ولا المصلحة أن تعيد تعريفها كما تشاء.

والاتباع ليس إلغاءً للإنسان، الآية نفسها تصفه تحريرًا من أثقال وأغلال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾. قد يتخيل المرء أن حريته في ألا يتلقى أمرًا، ثم يكتشف أنه يتلقى أوامر أقسى من عادة ألفها، أو شهوة يخاف فقدها، أو جمهور يخشى نظرته، أو صورة يريد أن يحفظها بأي ثمن. ويأتي اتباع الرسول والنور ليخرج القلب من سلطان هذه الأشياء إلى عبودية ربه.

وفي السنة يأتي الحوار قصيرًا حاسمًا. قال رسول الله ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**». قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**» رواه البخاري (7280).

«من أطاعني دخل الجنة».

دع هذه الجملة تأخذ موضعها قبل أن تعود إلى تفاصيل يومك.

الجنة التي كانت في آخر سورة المؤمنون ميراثًا للمفلحين، يفتح النبي ﷺ هنا باب الطريق إليها بكلمة تبدو في ظاهرها يسيرة: الطاعة.

ليس الطريق إلى الجنة سرًّا يبحث عنه الإنسان بعيدًا عن الوحي، ولا مشروعًا شخصيًا يصنعه ثم ينتظر أن تباركه السماء. رسولٌ يُطاع، ونورٌ يُتبع، وربٌّ يهدي.

وفي الحياة اليومية لا يقول الإنسان غالبًا: أنا أرفض هدي الرسول. المسافة أدق من ذلك. يعرف السنة ثم يؤجلها لأنها لا تناسب صورته الآن. يتبين له الحكم، ثم تقدم عليه عادة ألفها. يسمع النص، ثم يكون أول سؤال في قلبه: كيف أحافظ على ما أريد؟ قبل أن يسأل: كيف أستجيب؟

وفي الجهة الأخرى قد تكون الطاعة صغيرة لا تلتفت إليها العيون: حق أدّاه وهو قادر على تأخيره، عادة تركها لله، أمانة ردّها إلى صاحبها، حكمًا قبله على نفسه، سنة علمها ثم قدّمها على ما اعتاده.

لا ترتفع لافتة تقول إن هذا الإنسان صار اليوم أقرب إلى صورة المفلح.

لكن ربما حدث في القلب شيء أعظم من كثير مما تراه العيون: كان هناك هوى يتقدم، فتأخر. وكان هناك نور يعرفه، فاتبعه.

ولذلك لم يحصر القرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في باب واحد.

لأن الإنسان نفسه ليس بابًا واحدًا.

فيه قلب يصدق بالغيب، وجبهة تسجد، ويد تنفق، وهوى يقف أمام الحكم، وصلة بالناس، ومال يحبه، ونفس يخشى عليها، ورسول ينبغي أن يتبع، ونور ينبغي أن يمشي به.

الفلاح ليس لقبًا يوضع فوق النتيجة حين تنتهي المسابقة. إنه اسم لإنسان دخل تحت هدى ربه حتى صار لهذا الهدى أثر فيه.

ولهذا لا ينبغي أن يغلق القارئ هذه المواضع في سؤال محاسبي: كم خصلة اجتمعت فيّ؟ السؤال الأصدق: أين بلغ الهدى مني؟

قد تكون عندي صلاة؛ لكن ماذا يحدث حين يمس الحكم هواي؟ وقد أنفق؛ لكن إلى أين يتجه القلب وهو يعطي؟ وقد أعرف السنة؛ لكن من الذي يتقدم حين تصطدم بعادتي؟

ولا يحتاج هذا السؤال أن يتحول إلى جلد للنفس. القرآن لم يبدأ في البقرة بالنتيجة، بل بدأ بـ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. الله يهدي، والعبد يتلقى ويرجع ويستجيب. قد يزل، وقد يضعف، ثم يعود. صورة المفلح ليست تمثالًا جامدًا ينبغي أن يطابقه في يوم واحد؛ إنها حياة يبنيها الوحي في عبد يقبل أن يقوده ربه.

وربما كان من أعظم ما يرجوه العبد في هذه الطريق ألا يتركه الله لنفسه؛ أن يهديه إذا اشتبه، ويرده إذا مال، ويفتح له من كلامه ما يحيي قلبه، ثم يعينه أن يقول حين يأتي موطن الاختيار: سمعنا وأطعنا.

وعند هذا المعنى تعود العبارة وقد اتسعت:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ليسوا أصحاب أكبر صورة في أعين الناس.

هم الذين صار للهدى فيهم أثر.

لكن القرآن لا يكتفي بأن يريك الصورة بعد أن تتكون. في أبواب متباعدة من الحياة يجيء الإنسان وهو في الطريق، قبل أن يبلغ تمامها، فيسمع نداءً آخر:

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

القسم الثالث

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

كيف يرافقك القرآن وأنت تسير؟

أن ترى صورة المفلح بعد اكتمالها أمر، وأن تعيش الطريق إليها أمر آخر.

فالإنسان لا يدخل يومه وفي يده امتحان واحد اسمه «الفلاح». يدخل إلى رزق وخوف، وطاعة وفتور، ومصلحة وشهوة، وحقوق مع الناس، ثم قد يخطئ بعد ذلك كله في موضع كان يتمنى أن يثبت فيه.

وفي هذه التفاصيل نفسها تتكرر في القرآن عبارة لا تأتي بعد باب واحد من أبواب الدين، بل بعد أبواب متباعدة من الحياة:

> ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

كأن الفلاح ليس محطة بعيدة تنتظرها في آخر العمر، بل نداء يلقاك وأنت تمشي.

أن يبقى قلبك مع الله في كل الأحوال

تنتهي صلاة الجمعة، ويخرج الناس من المسجد. الأبواب تفتح من جديد على العمل والبيع والمواعيد والحاجات، والحياة لا تتوقف لأن الصلاة انتهت.

ولا يقول القرآن للناس بعد الصلاة: ابقوا بعيدًا عن الدنيا. يقول:

> ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
>
> [الجمعة: 10].

في الآية حركة كاملة: ﴿فَٱنتَشِرُوا﴾، وطلب للرزق: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، ثم في قلب الحركة كلها: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ليست الحياة هنا قسمين: لحظة لله داخل المسجد، ثم عالم آخر يبدأ عند الباب. الرزق نفسه من فضل الله، والسعي إليه يمكن أن يكون طاعة، والقلب الذي تحرك جسده في الأرض لا يلزم أن يترك ربه وراءه.

وقد يرى الإنسان هذه الآية في يومه أكثر مما يراها في شرح طويل. يخرج من صلاة، ثم يفتح هاتفه، وتبدأ الرسائل والمواعيد والحسابات وما يريد أن ينجزه قبل المساء. لا يحتاج القلب إلى معصية كبيرة حتى يبتعد؛ يكفي أن تمتلئ المساحة كلها بشيء بعد شيء حتى لا يبقى في داخله موضع حاضر لربه.

فتأتي الآية لا لتوقف الحركة، بل لتحفظ القلب وهو يتحرك:

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10].

أن يعرف ممن جاءه الفضل، ولمن يسعى، ومن يملك رزقه، ومن إليه رجوعه. وأن لا يصير نجاح يومه في إنجاز ما أراد سببًا لأن ينسى من أنعم عليه باليوم أصلًا.

ثم تنتقل العبارة نفسها تقريبًا إلى مشهد لا يشبه السوق ولا يوم العمل. هنا خوف ولقاء واضطراب نفوس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

في الأولى: انتشروا. وفي الثانية: اثبتوا. وفي الحالتين: اذكروا الله كثيرًا.

بين المشهدين مسافة واسعة من حياة الإنسان: مرةً يطلب فضل الله في الأرض، ومرةً يقف أمام ما يخيفه. في السعة يحتاج إلى ذكر لا يدع النعمة تستولي على قلبه، وفي الشدة يحتاج إلى ذكر لا يدع الخوف يستولي عليه.

وفي قصة هود عليه السلام يأتي النداء في موضع النعمة والقوة: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69]. فالنعمة نفسها تحتاج قلبًا يذكر، لأن ما يطول على الإنسان من فضل قد يتحول في حسه من عطية إلى شيء يراه حقًّا طبيعيًّا له.

وقد تمر على الإنسان أيام نجح فيها في مواعيده، وأغلق ملفاته، وربما اتسع رزقه، ثم يلتفت في آخرها فيجد أن أكثر ما غاب عنها هو قلبه مع الله.

القرآن لا يسمي الحركة وحدها فلاحًا. يدعوك أن تتحرك، لكن لا بقلب فارغ من ربك.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

أن تعبده، وتجاهد نفسك، وتبقى في الطريق

لكن حضور القلب مع الله لا يغني عن سؤال آخر: كيف تعبده؟ وكيف تبقى على عبادته حين لا تحملك إليها حرارة البداية؟

وتأتي العبارة نفسها بعد تصحيح تصورٍ للبر في سورة البقرة: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189]؛ فالطريق إلى الله لا تصنعه المشاعر الحسنة وحدها، بل يبيّنه شرعه، وتعود في سورة المائدة بعد التقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]. وبين الموضعين يفتح القرآن أمام العبد صورة جامعة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: 77].

ركوع وسجود وعبادة، ثم خير يخرج من العبد إلى الحياة. لا يقف الفلاح عند إحساس داخلي بالقرب، ولا عند حركة ظاهرة بلا قلب؛ يسجد الجسد، ويتعبد القلب، ويجري الخير في العمل.

لكن الطريق لا يختبرك في البداية وحدها.

كم من إنسان بدأ شيئًا لله بحرارة صادقة: فتح مصحفه أيامًا، أو حفظ وردًا، أو أصلح صلاة، أو قطع عادة، أو دخل باب خير. كانت البداية جميلة، ثم مر أسبوع، ثم ازدحمت الحياة، وثقلت النفس، وصار ما كان يفعله بشوق يحتاج إلى مقاومة.

لكن حرارة البداية ليست الطريق كله.

في خاتمة آل عمران يأتي نداء طويل النفس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

ليس فيها أمر واحد سريع: اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله. الفلاح هنا ليس ومضة حماس؛ فيه بقاء.

قد يأتي يوم لا تشعر فيه بحلاوة البداية، ولا ترى ثمرة ظاهرة لما تفعل، ويصبح أفضل ما تستطيع أن تصنعه أن تبقى في موضعك الصحيح: تصلي، وتذكر، وتترك ما حرم الله، وتعود إلى الخير ولو لم يكن في نفسك وهج الأمس.

وقالت عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**» رواه مسلم (783). وقد يكون العمل قليلًا في عينك، لكنه صار له موضع في يومك لا تسلمه كلما تبدل مزاجك: نافلة تحفظها، وذكر ترجع إليه، وصفحات من القرآن لا تتركها، ومعروف صغير صار له مكان ثابت في حياتك.

ليس المقصود أن ترضى بالقليل إذا قدرت على المزيد، ولا أن تجعل الدوام ذريعة لضعف الهمة. لكن في الطريق إلى الله قيمة لا تصنعها الحماسة وحدها: أن تبقى.

وقد يمر عليك وقت فاتر، فتفتح المصحف ولا تجد في نفسك انشراح الأيام الأولى، أو تقوم إلى الصلاة وقد ثقلت عليك النفس، أو تعود إلى طاعة لا تحملك إليها مشاعر قوية. لا يعني هذا أن كل ما بنيته قد ضاع. أحيانًا تكون عبوديتك الصادقة في أن تقوم إلى ما تعرف أن الله يحبه حين لا تحملك إليه موجة شعور.

هذه لحظة لا يراها الناس، وربما لا يراها صاحبها عظيمة؛ لكنه بقي عند الباب: بقي في الطريق حين لا يصفق له شيء في داخله.

﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

أن يبقى ميزان الله حاكمًا حين تدخل الشهوة والمال والمصلحة والناس

ثم يأتي امتحان آخر. قد يكون الإنسان ذاكرًا، ويعرف العبادة، ويحاول الثبات، لكن أمامه الآن شيء يحبه فعلًا: زيادة في المال، أو لذة قريبة، أو مصلحة يكره أن تفوته.

هنا لا يكون السؤال: هل أعرف الحكم؟ بل: ماذا يفعل حكم الله حين يقف بيني وبين ما أريد؟

يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130].

الزيادة في الحساب ظاهرة، والرقم يستطيع أن يتكلم بصوت عالٍ. قد يرى الإنسان معاملة فيها مال أكثر، ويبدأ سريعًا في حساب ما سيحصل عليه وما سيفوته إن تركها. الخسارة في الحساب القريب محسوسة: رقم لم يدخل، فرصة ذهبت، وربما أخذ غيره ما تركه هو.

ثم يأتي الوحي من موضع آخر:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130].

أحيانًا يكون طريق الفلاح في شيء لم تأخذه، في يد استطاعت أن تمتد ثم توقفت لله، وفي مكسب ظهر أمام العين ثم لم يُسمح له أن يشتري من القلب طاعته.

ويجيء المعنى في باب الشهوة والاجتماع بالناس بصورة أوسع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90].

﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾. فالفلاح لا يتكون فقط مما تفعله، يتكون أيضًا مما تتركه لله.

وقد تبدو بعض الممنوعات في اللحظة الأولى لذةً، أو صحبةً، أو مكسبًا، أو إثارةً، فيشعر الإنسان أن الترك هو الفراغ. لكن الآية التالية تكشف أن وراء اللذة القريبة أثرًا يمتد أبعد من اللحظة:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91].

في آية واحدة اجتمع ما بينك وبين الناس وما بينك وبين الله: العداوة والبغضاء بينكم، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة في علاقتكم بربكم.

قد تبدأ المسألة بشيء يبدو شخصيًّا: لذة أريدها أو مال أرجوه، ثم لا تبقى شخصية؛ تدخل القلب، والصلاة، والبيت، والعلاقة بالناس.

فالإنسان لا يعيش فلاحه وحده في غرفة مغلقة. اختياراته تصنع ماله وحقوق غيره وصفاء قلبه عند الصلاة وصلته بمن حوله.

وتعود العبارة نفسها في المائدة عند امتحان الكثرة والإعجاب بها [المائدة: 100].

قد يكون فلاحك اليوم في شيء لم تفعله: مال لم تأخذه، ولذة قطعتها، وحق لم تأكله، وطريق أعجبك بريقه ثم تركته لأن الله لا يحبه.

هناك لا يبدو القرار دائمًا بطولةً في عين أحد. ربما لا يعرف به أحد أصلًا. لكن ميزان الله دخل بين الشهوة والفعل، وبين المصلحة والقرار، وبينك وبين حق غيرك.

وهذا أيضًا من طريق الفلاح.

وإذا زللت، فارجع

ثم يحدث ما يعرفه كل عبد من نفسه: يخطئ.

قد يكون قد قرأ عن الذكر ثم رأى غفلته، وعن الثبات ثم تذكر كم بدأ وانقطع، وعن التقوى ثم رأى موضعًا غلبته فيه شهوة أو مصلحة. وقد تكون الزلة أشد عليه لأنها وقعت منه بعد علم، أو بعد وعد قطعه على نفسه، أو في باب كان يظن أنه صار أقوى منه.

عندئذ لا يكون الخطر في الذنب وحده. يأتي بعده صوت آخر: بعد كل ما عرفت، كيف ترجع؟ كم مرة وعدت ثم ضعفت؟ وهل بقي لعودتك معنى؟

لو انتهى خطاب الفلاح قبل هذه اللحظة، لعرف بعض القلوب الطريق أكثر، لكنها ربما خرجت وهي تشعر أنها أبعد منه.

لكن من مواضع ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ نفسها قول الله تعالى:

> ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

والنداء هنا للمؤمنين أنفسهم: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فالذين خوطبوا بالتوبة مؤمنون.

فطريق الفلاح ليس مشروطًا بأن تكون إنسانًا لم تزل قط. من الطريق أن تعرف ربك حين تطيع، وأن تعرف طريقك إليه حين تخطئ.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾: إلى الله.

لا تنتظر حتى تصلح صورتك وحدك ثم تعود إليه. العودة نفسها إليه. تعترف، وتندم، وتترك، وتستغفر، وترد ما استطعت من الحقوق إن كان للناس حق، ثم تمشي إلى ربك بما بقي فيك من ضعف ورجاء.

والسنة لا تصف هذه العودة ببرودة؛ بل تجعل القلب يعيش مشهدها. قال رسول الله ﷺ: «**لَلَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**» رواه مسلم (2747).

قف عند هذه الكلمة.

العبد هو المحتاج إلى التوبة، وربه غني عنه، ثم يخبره نبيه ﷺ عن فرح الله بتوبته.

ليس في الحديث فقط أن الباب لم يغلق. فيه أن رجوعك محبوب عند ربك، وأن الذي دعاك إلى التوبة لم يدعك إلى باب بارد لا تعرف كيف تُستقبل عنده.

هذا لا يجعل المعصية هينة. بل يزيد الحياء: كيف يقيم العبد على ما يكرهه رب دعاه إلى الرجوع إليه، وفتح له الطريق، وأخبره عن فرحه بتوبته؟ لكنه في الوقت نفسه يمنع الذنب من أن يتحول في يد الشيطان إلى يأسٍ أعمق من الذنب نفسه.

قد تغفل عن الذكر؛ فارجع. وقد تنقطع عن عمل كنت تحبه؛ فابدأ من جديد. وقد تأخذ ما ليس لك؛ فرد الحق وتب. وقد تغلبك شهوة؛ فلا تجعل سقوطك مرةً حجةً على أن تستسلم لها بقية العمر.

ولعل من أدفأ ما في هذه الآية أنها لم تقل للتائبين: لقد خرجتم من طريق الفلاح. بل جعلت التوبة نفسها في الطريق إليه:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 31].

هكذا يحيط هذا النداء بحياة الإنسان: في السعة والخوف يرد قلبه إلى الذكر، وفي العبادة يدعوه إلى السير والثبات، وعند المال والشهوة والمصلحة يجعل ميزان الله حاكمًا، وإذا زل لا يتركه عند موضع سقوطه؛ يفتح له طريق العودة.

فليس الفلاح جائزة موضوعة في آخر طريق لا تعرف كيف تسلكه. ربك يريك الطريق، ثم يكرر لك وأنت تمشي: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وحين يصحب هذا النداء قلبًا في يومه، لا تتغير أفعاله وحدها؛ تبدأ رغباته نفسها تتغير. يصبح السؤال التالي طبيعيًّا: ما الذي يستحق أن يريده هذا القلب، وبماذا يفرح، وعلى ماذا ينافس؟

القسم الرابع

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾

ما الذي يستحق أن يريده قلبك، ويفرح به، وينافس عليه؟

قد يصل إلى الإنسان خبر انتظره طويلًا، فيشعر قبل أن يفكر أن شيئًا في داخله قد اتسع. وقد يرى في يوم آخر بابًا فُتح لغيره كان يتمنى أن يُفتح له، فيتحرك في صدره شعور بالغيرة قبل أن يتأنى في وزن ما عنده وما عند غيره، فإنَّ للفرح والغيرةِ لغةً لا تحتاجُ إلى كثير استئذان، كلاهما يكشف ما أعطاه القلب منزلةً عالية، وما صار في داخله جديرًا بأن يُطلب ويُحزن على فواته.

ولهذا لا يبدأ القرآن دائمًا بسؤال: ماذا فعلت؟ أحيانًا يذهب أبكر من الفعل، إلى الشيء الذي أردته أصلًا.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: 14-17].

جاء حكم الفلاح، ثم جاءت كلمة ﴿تُؤْثِرُونَ﴾.

فالإيثار لا يظهر حين لا يكون أمام القلب إلا محبوب واحد. يظهر حين يتزاحم محبوبان، فيتقدم أحدهما. وما تفرح أن تناله، وما يثقل عليك أن يسبقك إليه غيرك، وما تستطيع أن تبذل لأجله من وقت وراحة واهتمام، كل ذلك يكتب شيئًا من ترتيب المراد في قلبك.

ثم لا يقول القرآن فقط إن الآخرة أطول زمنًا. يقول:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: 17].

خير؛ فالموازنة ليست في المدة وحدها.

وأبقى؛ فلا تكفي حلاوة اللحظة لتمنح الشيء مرتبته الأخيرة.

وفي يوم الزينة نفسه، بعد أن امتلأت الساحة بالاستعلاء والتهديد، انتهى السحرة إلى الكلمة التي تعيد ترتيب كل محبوب أمام القلب:

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: 73].

ما كان قبل ساعات يبدو قادرًا على أن يملأ الدنيا في أعينهم، لم يعد قادرًا على أن يصرفهم عمّن هو خير وأبقى.

ويضع القرآن كلمة الإرادة قبل النتيجة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾، ثم: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18-19].

قبل أن تسأل: كم حصلت؟ وكم سبقت؟ وكم بقي في يدك؟ هناك سؤال أهدأ وأخطر: ماذا كنت تريد؟

قد يملأ الإنسان عمره بطلب شيء، ثم لا يسأل نفسه إلا في آخر الطريق: لو حصلت عليه كله، فهل كان يستحق أن يحتل هذا القدر من قلبي؟

والقرآن لا يربي القلب على فراغ. لا يقول له فقط: لا تفرح بهذا، ولا تتعلق بذاك. لو نُزعت منه أفراحه القديمة ولم يُفتح له باب أرفع، عاد إليها عند أول ضعف. لذلك يعرض الله أولًا ما جاء منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 57].

ثم يقول: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: 58].

قبل الأمر بالفرح، سمّى الله ما أتاك منه:

موعظة من ربك.

وشفاء لما في الصدور.

وهدى.

ورحمة.

ثم قال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58].

لم يُطفأ الفرح؛ نُقل إلى موضع أرفع.

قد يُفتح للإنسان باب من الدنيا فيشكر الله ويفرح، وهذا من تمام النعمة. لكن هناك فتح آخر قد يمر به فلا يكاد يحتفل به قلبه: آية ردته إلى الله بعد تشتت، أو ذنب صرفه الله عنه بعد أن اقترب منه، أو صلاة استقامت بعد اضطراب، أو فهم من كتاب الله جعل شيئًا كان غامضًا في حياته أوضح، أو قلب رقّ بعد قسوة.

الناس يرون الزيادة في المال سريعًا؛ أما زيادة الهدى فقد تقع في الداخل ولا يصفق لها أحد.

وقد يكون من فقر القلب أن يعرف جيدًا مقدار ما دخل حسابه هذا الشهر، ولا يعرف ماذا زاد في إيمانه. أن يحفظ أخبار ما فُتح للناس، وينسى فتحًا من الله وقع بينه وبين آية. أن يشعر فورًا أنه تقدّم إذا كثر ما يملك، ولا يشعر بمثل ذلك حين ينقص من قلبه تعلق كان يؤذيه.

فتأتي الآية لتعيد تعليم الفرح:

﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: 58].

ليس لأن ما يجمعه الإنسان لا قيمة له في كل حال، بل لأن ما يأتيه من الله هدىً ورحمةً وشفاءً لا يجوز أن يبقى في قلبه أقل وزنًا من شيء سيتركه يومًا.

حين ترى ما عند غيرك

وفي السنة صورة هادئة للفلاح لا تصنعها الأضواء. قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه» رواه مسلم (1054).

إسلام يهدي الوجهة، وكفاف يقيم الحياة، وقلب قنّعه الله بما آتاه.

ثم فوق هذه الحياة التي قد لا تبدو في أعين الناس قصة نجاح كبيرة، يقول النبي ﷺ:

«قد أفلح».

الكفاف ليس اتساعًا يبهر، والقناعة ليست عجزًا عن الطموح. إنها نعمة أخرى: أن لا يتحول رزق غيرك إلى آلة تسرق منك طعم رزقك أنت.

قد يكون في يدك ما يكفيك، ثم تسمع في مساء خبرًا عن شخص اتسع رزقه أو فُتح له باب كنت تتمناه. لا ينقص ما عندك شيئًا، لكن المقارنة تدخل فتغير طعمه. الشيء الذي كنت تراه نعمة قبل ساعة يصير في عينك قليلًا؛ لا لأنه نقص، بل لأنك نظرت إليه بعد أن ملأت عينك بما عند غيرك.

في هذه اللحظة لا تحتاج النفس إلى محاضرة في ذم الدنيا. تحتاج أن تعود إلى ربها، وأن ترى ما آتاها بعين الشكر لا بعين المقارنة.

وقد تكون القناعة في تلك اللحظة نعمةً ثانية فوق النعمة الأولى: لم يزد الطعام، ولم يتسع البيت، ولم يتغير رزق غيرك؛ لكن الله ردّ إلى قلبك القدرة على أن ترى ما عندك هبةً منه بعد أن كادت المقارنة تحوله في عينك إلى نقص.

فيأكل طعامه وهو يراه رزقًا منه، ويسكن بيته وهو يعرف أنه عطاء منه، ويفتح القرآن فيرى أن صفحة هدى قد تكون في ميزان قلبه أوسع من أشياء كثيرة ظل يتمنى أن تزداد.

القناعة لا تقول لك: لا تطلب فضل الله. بل تمنع طلبك من أن يتحول إلى اعتراض خفي على ما قُسم لك، وتمنع سبق الناس من أن يصير حكمًا على موضعك عند الله.

وحين تتزاحم المحبوبات، يكشف القرار ترتيبها. لذلك يجمع القرآن أمام الإنسان أهلًا ومالًا وتجارةً ومسكنًا، ثم يضع السؤال في موضع واحد:

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: 24].

لا يطلب منك أن تبطل محبة ما أحل الله. لكن لا تجعل محبوبًا آخر يشتري الموضع الذي لله ورسوله حين يأتي وقت الاختيار.

وعند تزاحم المحبوبات يتحول ترتيبها من معنى خفي في القلب إلى مشهد يُرى.

ليلة كان في البيت فيها قوت الصبية

أتى رجل رسول الله ﷺ وقد أصابه الجهد، فلم يجد النبي ﷺ عند أهله ما يضيفه به، فقال: «ألا رجل يضيفه هذه الليلة، يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار، ومضى به إلى بيته.

هناك لم تكن الخصاصة فكرة يُتحدث عنها من بعيد.

قال الرجل لامرأته في لفظ البخاري: «ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا».

قالت: «والله ما عندي إلا قوت الصبية».

الطعام الذي سيخرج لم يكن زائدًا لا يحتاج إليه أهل البيت. كان قوت الصبية.

فصار ما في القلب شيئًا له ثمن محسوس.

قال لها: «فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة». ففعلت.

بيت مظلم، وضيف يأكل، وأهل البيت يطوون بطونهم.

لا خطبة في الإيثار، ولا جمهور يرى ما جرى.

وفي الصباح جاءهما من السماء ما لم يكن حاضرًا في ظلمة البيت وهما يطويان بطونهما. قال رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله عز وجل ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة». ثم جاءت الآية:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]. رواه البخاري (4889)، وأخرجه مسلم (2054) بنحوه.

وموضع الحكم هنا لافت.

لم يقل القرآن فقط إن الضيف شبع، ولا إن الأسرة تحملت الجوع.

ذهب إلى المعركة الأعمق:

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: 9].

فالشيء الذي خرج من اليد له مقدار، لكن الذي انكسر في النفس قد يكون أعظم.

قد يبقى في البيت طعام أقل، ويخرج القلب من الليلة أوسع.

قد تبيت المعدة على نقص، وتصبح النفس أخف أسرًا لما تحب.

وهذا من مفارقات ميزان القرآن: أحيانًا ترى العين ما فقده الإنسان، بينما يكشف الوحي ما تحرر منه.

وليس كل إيثار مشهدًا كبيرًا كهذه الليلة. قد يأتي امتحان القلب في وقت كان يريد أن يستبقيه لنفسه، أو راحة يحبها، أو مال لا يفيض عنه. تظهر حاجة أخيه، فيشعر أولًا بما سيخرج منه قبل أن يشعر بما قد ينمو فيه.

وتكون العبودية في مثل هذه اللحظة شديدة الخفاء: ترى الشيء وتحبه، ولا تكذب محبتك له، ثم يكون ما عند الله أحب إلى قلبك من أن يحتجزك شح نفسك.

لا يحتاج أحد أن يعرف القصة حتى يكون لها وزن.

يكفي أن يعلمها الله.

وحين يعظم ما عند الله في القلب، لا تعود الرغبة فكرة داخلية لا أثر لها. تغيّر اليد، والوقت، والقرار، وطريقة النظر إلى ما خرج منك.

ومن هنا لا يريد القرآن أن يقتل في الإنسان روح السباق.

يريد أن يغيّر إلى أين يركض.

سباق لا يضيق بكثرة السابقين

قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: 21].

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ [الحديد: 21].

لم يقل القرآن للقلب الذي يعرف المنافسة: لا تنافس.

قال له: غيّر خط النهاية.

قد ترى من سبقك في الدنيا فيضيق صدرك؛ لأن السبق هناك قد يبدو كأنه أخذ شيئًا كان يمكن أن يكون لك. أما السبق إلى الله فله طبيعة أخرى. ترى عبدًا فُتح له في القرآن أو الصدق أو البذل، فيستطيع سبقه أن يوقظك من غير أن يجعله خصمًا لك. فضل الله لا ينقص لأن غيرك تقدّم، وباب المغفرة لا يضيق لكثرة الداخلين.

ولذلك لا يكون سؤال القلب: كيف أتمنى زوال ما عنده حتى لا أشعر أني متأخر؟ بل: ما الباب الذي فُتح له وأستطيع أن أطرقه أنا أيضًا؟

وقد رفع القرآن أمام القلب غاية لا تبقى كلمة مجردة. قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ [المطففين: 22-26]

هم في نعيم.

وعلى الأرائك ينظرون.

وأثر النعمة ظاهر حتى في الوجوه.

ويُسقون من رحيق مختوم، وحتى ختامه مسك.

القرآن هنا لا يكتفي بأن يخبر القلب أن في الآخرة خيرًا، يفتح له نافذةً يشتاق منها: مقامٌ يملؤه النعيم، ووجوه حملت نضرته، وشراب بلغ طيبه ختامه. كأن الوحي يعالج ضعف الشوق لا بالموعظة المجردة وحدها، بل بأن يجعل الغاية أقرب إلى القلب.

ثم عند هذا النعيم نفسه يقول:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26].

إذا كان لا بد للقلب أن يرى من سبقه ويتحرك، فهذه هي المنافسة التي تستحق أن تستيقظ لها نفسه.

أن ترى من سبق إلى القرآن فتشتاق إلى القرآن.

ومن سبق إلى الصدقة فتسأل الله قلبًا أوسع ويدًا أسبق.

ومن سبق إلى عبادة خفية فتدعو أن يفتح لك من بابه.

ليس لأن الناس صاروا مقياسك بدل الله، بل لأنك رأيت في خيرهم شيئًا يذكرك بالغاية التي دعاك الله إليها.

وحين يصير هذا هو ميدان السباق، تتبدل حتى الغيرة في القلب. بدل أن تتمنى أن ينقص خير أخيك حتى لا تشعر بتأخرك، تستطيع أن تدعو له بالثبات وتسأل الله من فضله.

هناك يتسع الخير لك وله معًا.

ويصبح للسؤال الذي يصحب الأيام وجه آخر:

ما الذي لو زاد اليوم في قلبي لكان أحق أن أفرح به؟

ما الباب الذي لو فتحه الله لي كان خيرًا من أبواب كثيرة ظللت أعدها وحدها نجاحًا؟

وأين سبقني الصالحون إلى الله؟

ثم يسمّي القرآن النتيجة باسمها الكبير:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصافات: 60].

ويأتي النداء بعده إلى طاقة العمل كلها:

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: 61].

وبهذا لا يخرج القلب من الدنيا باردًا، ولا من المنافسة منطفئًا، ولا من الفرح خائفًا.

يتعلم فقط أن يرفع هذه القوى إلى موضع أحق بها.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]، و﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]، و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: 61].

القسم الخامس

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾

ما الذي يجعل السعي مقبولًا، وكيف لا يضيع؟

حين يستيقظ في القلب نداء ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾، لا يبقى السؤال عن الغاية وحدها. يبدأ سؤال أدق: كيف يكون هذا السعي عند الله؟ ليس: كم فعلت؟ ولا: ماذا ظهر منه؟ بل: ماذا رُفع إلى الله من هذا كله؟

قد يكثر العمل، ويظهر أثره، ويعرفه الناس، ثم يبقى وراء الصورة شيء لا تملكه الأرقام ولا أعين الخلق: هل قُبل؟

ومن أقدم المشاهد التي يضع فيها القرآن القلب أمام هذا السؤال مشهد قربانين:

> ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾
>
> [المائدة: 27].

الفعل في ظاهر الجملة واحد:

> ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: 27].

لكن الحكم عند الله لم يكن واحدًا.

فيخفت غرور الإنسان بظاهر عمله؛ فلا يكفي أن يقول: فعلت، ولا أن يرى الناس أنه فعل، ولا أن يشعر بعد التعب أن العمل صار له حقٌّ على القبول.

وحين توعّد أخاه بالقتل بعدما لم يُتقبَّل منه قربانه، جاءه الجواب لا بخصومة مقابلة، بل بما ردَّه إلى ما بينه وبين الله:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

ولذلك لا يقرأ المؤمن هذه الآية بعين رجلٍ يحاكم غيره، بل بعين عبد يخاف على أحب أعماله أن يداخله ما يفسده. قد تكون الطاعة أجمل ما في يومه، ومع ذلك لا يقف عندها موقف المالك لثوابها؛ يقف موقف المحتاج إلى أن يتقبلها الله منه.

كان يمكن لما وقع أن يفتح له باب رجوع: ماذا في قلبي؟ ماذا بيني وبين ربي؟ لكنه جعل قبول أخيه خصومةً مع أخيه، حتى انتهى به فساد النفس إلى أن قال الله:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: 30].

ليس الخوف على القبول إذن فكرةً تبرد العمل. إذا استقام، فهو الذي يمنع العبد أن يقف أمام طاعته معجبًا بها كأنها خرجت من يده كاملةً لا تحتاج إلى فضل الله.

يعمل، ثم يفتقر.

يبذل، ثم يسأل الله أن يقبل.

ويفرغ من طاعة قد تعب لها، ثم يبقى في قلبه موضع لا يراه الناس يقول: يا رب، اجعلها لك، وتقبلها مني.

قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2].

لم يقل: أيكم أكثر عملًا. قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

فقد تمتلئ الأيام بالحركة، ويبقى أعمق ما فيها أبعد من العد: حقيقة العمل عند الله، والطريق الذي سلكه صاحبه، والقصد الذي قام في قلبه.

وتدخل السنة إلى الموضع الذي لا تبلغه أعين الناس. قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» رواه البخاري (54)، ومسلم (1907).

من الخارج قد ترى طريقًا واحدًا.

ومن الداخل قد تكون وجهتان لا تلتقيان.

قد تمشي القدمان المسافة نفسها، لكن قلبًا خرج إلى الله ورسوله، وقلبًا آخر جعل في آخر الطريق شيئًا من الدنيا.

عندئذ يضيق سلطان الحساب الذي يجيده الإنسان. يستطيع أن يحصي كم عمل، وكم أنفق، وكم بقي في الطريق؛ لكنه لا يستخرج من العدد وحده جوابًا عن السؤال الذي يسبق كل ذلك:

لمن كان هذا؟

حين لا يضيع ما لا يراه الناس

غير أن الخوف على العمل له حد. إذا دفعك إلى الصدق والإحسان فهو حياة، أما إذا قلب الطاعة كلها إلى قلق لا يرى إلا احتمال الضياع، جاء القرآن نفسه يطمئن القلب إلى ربه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

قف عند العبارتين:

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94].

ثم:

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

قد يخفى العمل عن الناس، أو يرونه ولا يعرفون كم كلف صاحبه، أو يعرفونه اليوم ثم ينسونه غدًا. لكنه لا يمر في فراغ.

هناك رب يعلم.

وهناك كتابة لا تحتاج أن يلتفت إليك أحد حتى تقع.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: 112]، ويقول عن السعي نفسه: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: 40].

والقرآن لا يكتب النتيجة وحدها. يلتقط من الطريق ما قد تراه أنت مجرد تعب بين البداية والنهاية؛ يذكر الظمأ والنصب والمخمصة، ثم يقول: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، ويذكر النفقة وقطع الوادي ثم يقول: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 120-121].

قد تنظر إلى عمل بعد أشهر من بدايته فلا ترى إلا ثمرة صغيرة، وليس معنى ذلك أن المشقة تصنع القيمة وحدها، وإنما ينظر الله إلى الطريق الذي بُذل فيه العمل وقصده، وما سبق الثمرة من مقاومة النفس والمحاولات والوقت الذي خفي، والباب الذي عدت إليه بعد فتور، والخطوة التي لم يصفق لها أحد.

ليس معنى هذا أن المشقة تصنع القيمة وحدها، قد يتعب الإنسان في طريق خاطئ. لكن إذا صح الطريق لله، لم يعد ما بذل فيه خارج الحساب لمجرد أنه لم يظهر في النتيجة.

ثم يأخذ القرآن هذا المعنى إلى مشهد تنقطع فيه النتيجة أمام العين نفسها.

رجل خرج من بيته ولم يصل

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 100].

في الآية بيت يستطيع صاحبه أن يبقى فيه.

ثم خروجٌ حقيقي لا مجرد أمنية:

> ﴿يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ [النساء: 100].

البيت صار وراءه، والوجهة أمامه، والقرآن سمّى جهة القلب قبل أن يخبرنا بما سيحدث للطريق:

> ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 100].

بدأ السعي فعلًا.

ثم تأتي الجملة التي تقطع الصورة قبل اكتمالها:

> ﴿ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النساء: 100].

لا يبلغ النص بنا إلى لحظة وصول. لا مشهد نهاية تستطيع العين أن تقف عنده وتقول: اكتملت الهجرة.

خرج.

ومضى.

ثم أدركه الموت.

وفي اللحظة التي يستطيع حساب الأرض أن يكتب عندها: لم يصل، يأتي حكم الله:

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: 100].

كان الطريق أقصر من أمنيته، لكنه لم يكن أقصر من علم ربه.

لو كان الإنسان لا يعرف قيمة السعي إلا حين يرى الخاتمة التي خطط لها، لأصبحت النتائج إلهًا صغيرًا في قلبه: ما اكتمل اطمأن إليه، وما انقطع ظنه ضاع. لكن هذه الآية ترده إلى جهة أوسع من عينه: قد تنتهي قدرتك قبل أن تنتهي نيتك، وقد ينقطع الطريق عن قدمك، ولا ينقطع علم الله بما خرجت له.

هذه الجملة لا تمحو ألم الطريق الذي انقطع، لكنها تمنعك أن تخلط بين شيئين مختلفين: أن تنقطع النتيجة التي كنت تريد أن تراها، وأن يضيع ما كان لله.

قد تقع الأولى.

أما الثانية فهذه الآية تفتح للقلب بابًا آخر.

خرج الرجل من بيته، ولم يذهب خروجه سُدًى لمجرد أنه مات قبل أن يبلغ غايته؛ فقد علم الله وجهته وما خرج له، وجاء الحكم أوسع من الصورة التي لم تكتمل:

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: 100].

وقد يكون في حياة القارئ طريق آخر لم يكتمل، وإن لم يكن هجرةً كهذه الهجرة. بدأ إصلاحًا بينه وبين الله، أو مشروع خير، أو تعلمًا، أو بابًا من نفع الناس، ثم قامت بينه وبين الصورة التي أرادها أسباب لم يملكها.

ليس كل توقف عذرًا، ولا كل بداية صدقًا. الآية نفسها لا تتحدث عن رجل جلس يتمنى؛ تقول: ﴿يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ﴾. لكنه إذا صدق ودخل الطريق، فليس مقدار ما استطاع أن يراه بعينه من اكتمال النتيجة هو كل ما عُرف منه عند الله.

وما أوسع الفرق بين عبد يعمل ليصنع صورة مكتملة يراها، وعبد يعمل لله ثم يرضى أن يكون علم تمام عمله عند ربه.

أقدام تمشي، ورجال حبسهم المرض

وفي السنة يمتد المعنى إلى صورة أخرى.

كان بعض الصحابة في الطريق مع رسول الله ﷺ، وفي المدينة رجال لم يكونوا معهم بأجسادهم. لم يمنعهم فتور رغبة ولا اختيار راحة؛ حبسهم العذر.

فقال النبي ﷺ: «**إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم المرض**» رواه مسلم (1911).

الأقدام تمشي في الطريق.

والرجال في المدينة.

ثم يقول النبي ﷺ: «إلا كانوا معكم».

غياب الصورة لم يكن غيابًا للأجر؛ لأن الذي غاب هو القدرة، لا صدق الإرادة.

ويحرس الوحي القلب من طرفين: لا يجعل النية اسمًا جميلًا للكسل، ولا يجعل العجز الحقيقي إلغاءً لما في القلب.

الرجل في آية النساء خرج من بيته.

وهؤلاء حبسهم المرض.

بين من يستطيع ثم لا يفعل، ومن يريد ولا يستطيع، فرق يعلمه الله، ويعرف العبد من نفسه كثيرًا منه.

وقد يأتي العذر بعد أن يصير الخير عادةً في حياة الإنسان؛ فيقول النبي ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا» رواه البخاري (2996).

ربما كانت لك طاعة صارت جزءًا من يومك، ثم جاء مرض لا تستطيع معه أن تصنع صورة الأمس. الجسد الذي كان يحمل العمل صار هو الذي يحبس عنه.

لكن رب الصحة والمرض واحد.

وهو يعلم ما كنت تصنع حين كنت تستطيع.

هذه الطمأنينة لا تقلل العمل؛ بل تحرره من عبودية النتيجة. تعمل حين تستطيع، وتحسن ما استطعت، ولا تغش الطريق لتصل أسرع، ولا تجعل أعين الناس دفتر العمل الوحيد. فإذا حال بينك وبين تمام خير ما لا تملك، لا يتحول عجزك إلى سوء ظن بربك.

الشكر الذي لم يطلبوه

ثم يبلغ المعنى ذروته في مشهد هادئ لا جيش فيه، ولا سفر، ولا جمهور.

طعام في يد عبد.

ومسكين، ويتيم، وأسير أمامه.

قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 8-9].

القرآن لا يخفي أن للطعام موضعًا في النفس:

> ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: 8].

خرج شيء محبوب من اليد.

لكن الأعمق من حركة اليد هو الجهة التي تحرك إليها القلب:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 9].

ثم يقطعون عن العمل آخر خيط يمكن أن يعيده إلى الناس:

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9].

لا يريدون من المسكين أن يرد لهم شيئًا.

ولا من اليتيم أن يحمل جميلهم.

ولا من الأسير حتى كلمة: شكرًا.

أخرجوا الطعام من أيديهم، وحاولوا أن يخرجوا معه من قلوبهم انتظار المقابل من الخلق.

ويصبح الامتحان أقرب من الطعام نفسه: كم من معروف يفعله الإنسان لله، ثم يبقى جزء من قلبه واقفًا عند أفواه الناس ينتظر أن يسمع أنهم رأوه؟

قد لا يطلب مالًا ولا خدمة، لكنه يريد أن يُعرف.

وقد لا يريد مدحًا صريحًا، لكنه يتألم حين يُنسى معروفه.

وقد يعطي، ثم يظل رد المتلقي قادرًا على أن يرفع مزاجه أو يهدمه، كأن شيئًا من قيمة العمل بقي مرهونًا عند الناس.

أما هؤلاء فقالوا:

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9].

ثم يمضي القرآن بهم إلى اليوم الذي خافوه لأجل الله:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: 11-12].

لم يطلبوا من الخلق جزاءً.

فجاء الجزاء من الله.

ولم يريدوا من أفواه الناس شكورًا.

ثم بعد النعمة والوقاية والسرور والجنة، تأتي في آخر المشهد كلمة تكاد وحدها تكفي لتغيير علاقة القلب بكل عمل خفي:

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22].

في الدنيا قالوا:

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9].

ثم جاءهم من ربهم:

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22].

الذي لم يريدوه من الخلق لم يضع. لم تكن قيمة الطعام معلقةً بكلمة تخرج من فم مسكين أو يتيم أو أسير. وحين سقط من حسابهم انتظار الشكر من الناس، لم يسقط السعي في فراغ؛ كان عند ربهم معلومًا محفوظًا، حتى جاءهم الخبر الذي لم يطلبوه من أحد: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

قد تمضي طاعة في يومك ولا يلتفت إليها أحد، وتقاوم نفسك في أمر لا يعرف أحد أنك قاومت فيه، وتؤدي حقًّا فلا تسمع كلمة امتنان، ويُنسب أثر خيرٍ صنعته إلى غيرك، وربما تزرع شيئًا ولا تعيش حتى ترى تمام ثمرته. في مثل هذه المواطن يتعلم القلب أن قيمة ما كان لله لا تتوقف على أن يراه الناس كاملًا، ولا أن يعرفوا صاحبه، ولا أن يعيدوا إليه جميله.

لا يعني هذا أن كل عمل قُبل، ولا أن العبد يستغني عن الخوف على قلبه. فقد افتتح سؤال السعي من الأصل بـ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

لكنه لا ينتهي بالخوف.

ينتهي عند رب يعلم السعي، ويكتب الطريق، ويعلم العذر، ولا يضيع ما كان له.

وعندها يستطيع القلب أن يعمل من غير أن يطلب من كل عمل شهادة عاجلة بأنه نجح.

يعمل، ويرجو، ويفتقر، ثم يترك قدر سعيه عند من لا ينسى.

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22].

القسم السادس

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾

ماذا يمكن أن يربح الإنسان ويخسر نفسه؟

حين يقول الإنسان: خسرت، يذهب ذهنه غالبًا إلى شيء كان خارجَه ثم فاته: مال، فرصة، مكانة، مشروع، باب كان يرجوه فلم يُفتح. وهذه خسارات لها وزنها في الحياة، ولا يطلب منك الوحي أن تسمي الفقد مكسبًا، ولا الألم راحة.

لكن القرآن ينقل كلمة الخسارة إلى موضع أقرب إلى الإنسان من كل ما في يده.

قال الله تعالى في سياق الأمر بعبادته وحده والتحذير من عبادة ما سواه:

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: 15].

لم يقل هنا: الذين خسروا أموالهم، ولا الذين ضاعت منهم فرصهم، ولا الذين سبقهم غيرهم؛ قال: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

يمكن أن يخرج من يد الإنسان شيء ويبقى هو محفوظ الاتجاه، قريبًا من ربه، أصلح مما كان. ويمكن أن تمتلئ اليد، ويعلو الاسم، وتتسع الحياة من حوله، ثم تكون الخسارة قد دخلت إلى الموضع الذي لا يعوضه شيء إذا ضاع.

ليست كل خسارة فيما خرج منك؛ قد تكون الخسارة فيما صرتَ إليه.

حين تنشغل بما لك عن نفسك

ومن أبلغ ما يكشف الخسارة أن أسبابها ليست دائمًا أشياء قبيحة في ذاتها، قد تأتي من نعم يحبها الإنسان ويشكر الله عليها.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

المال ليس هو الخسارة، والولد ليس هو الخسارة.

الخسارة أن يتحول ما أُعطيت إلى شيء يلهيك عن الذي أعطاك؛ أن يزداد ما حولك، بينما يضعف ما ينبغي أن يحفظ قلبك من الضياع.

قد يمضي يوم كامل وقد نجح الإنسان في أعماله كلها تقريبًا، ثم يلتفت إلى قلبه، فيجد أن يومه امتلأ بكل شيء إلا من حضور قلبه مع الله.

ليس العمل والرزق والأهل خصومًا للعبادة. القرآن نفسه أمر بالسعي، وأمر بحقوق الأهل، وسمّى الرزق فضلًا من الله. لكن النعمة إذا استولت على القلب حتى حجبت المنعم تغير أثرها في صاحبها.

وفي سورة الحشر تأتي عبارة أشد رهبة:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 19].

نسوا الله، أي أعرضوا عن ذكره وطاعته، فكانت العقوبة: ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾.

قد يظل الإنسان مشغولًا بنفسه طوال اليوم: يحفظ راحتها، ويخطط لمستقبلها، ويدافع عن صورتها، ويجمع لها، ثم يكون في المعنى الأعمق قد نسي ما ينجيها عند الله.

ثم ينقل القرآن القلب إلى لحظة تتغير عندها قيمة الأشياء كلها:

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: 10].

واللافت ما يطلبه حين تضيق المسافة.

الأموال التي كان يخشى أن تنقص لا يقول الآن: أمهلني حتى أزيدها، ولا يطلب أيامًا أخرى ليكمل شيئًا من زينة الدنيا؛ يطلب أجلًا قريبًا ليفعل ما كان يستطيع أن يفعله قبل أن يضيق الوقت:

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10].

ثم يأتي الإغلاق الذي لا يملك أحد بعده أن يراجع جدول حياته:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ﴾ [المنافقون: 11].

وصاحب هذه الحسرة يتمنى زمنًا يعمل فيه، وأنت تقرأ الآن قبل أن يأتي أجلك.

ما زال في يدك من الزمن شيء من جنس ما يتمنى هو أن يُزاد له منه: وقت تستطيع فيه أن تستغفر، ومال تستطيع أن تقدم منه، وحق تستطيع أن ترده، وصلة تستطيع أن تصلحها، وطاعة تستطيع أن تبدأها قبل أن يصبح الفعل أمنية.

الآية لا تريد أن تخيفك من الموت فقط؛ تريد أن توقظك قبل أن يأتي.

حين يكون الدين على حرف

لكن الخسارة لا تأتي من الغفلة وحدها. أحيانًا يدخل الإنسان باب العبادة، وقلبه لا يزال يجعل الدنيا الحكم الأخير على صلاح الطريق.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11].

في طرف الآية خير يصيبه، وفي الطرف الآخر فتنة؛ وبينهما يظهر ما كان الدين يعنيه له.

ما دامت الطريق تأتيه بما يحب، اطمأن؛ فإذا جاءت بما لا يحب:

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: 11].

القرآن لا يذم مجرد الألم عند البلاء؛ الأنبياء عرفوا الخوف والحزن والجوع والأذى. الخطر أعمق: أن تكون صلتك بالله معلقة على أن تأتيك الدنيا بالصورة التي تريدها.

قد لا يقول العبد هذا بلسانه. لكنه يظهر حين تتأخر دعوة، أو يفوته باب، أو ينزل به ما لم يتوقعه، فيتحول السؤال في داخله من: كيف أعبد ربي في هذا؟ إلى: ما فائدة الطريق إذا لم أحصل على ما أردت؟

وقد يطول الدعاء في أمرٍ أحبه، ويعلّق القلب رجاءه بصورة بعينها، ثم تأتي الأيام بخلاف ما أراد. ليس المطلوب أن لا يحزن، ولا أن يتظاهر بأن الفقد لا يؤلمه. لكن هنا تنكشف حقيقة العبودية: هل يبقى الله ربَّه الذي يعبده حين لا تأتيه الدنيا بما أراد؟ أم كان في أعماقه شرط خفي: أبقى ما دامت الطريق تعطيني ما أحب؟

الآية لا تسمّي البلاء نفسه خسارة؛ تسمّي الانقلاب خسارة: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾.

قد يفوتك شيء من الدنيا وتبقى عند الله رابحًا. أما أن تجعل الدنيا شرطًا لاستمرارك مع الله، فهذه خسارة تمس أصل الطريق نفسه.

«أتدرون ما المفلس؟»

ثم تأتي السنة إلى اسم يعرفه الناس جيدًا، فتنقله من اليد إلى المصير.

سأل رسول الله ﷺ أصحابه: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: «المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع».

هذا هو الاسم كما تعرفه الدنيا: ذهب المال، فلم يبق في اليد شيء.

فقال النبي ﷺ: **«إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»** رواه مسلم (2581).

تدخل الصلاة والصيام والزكاة إلى المشهد، ثم يدخل الناس واحدًا بعد واحد: هذا الذي شتمه، وهذا الذي قذفه، وهذا الذي أكل ماله، وهذا الذي ضربه.

أشياء ربما بدت في الدنيا ملفات منفصلة عن عبادته: كلمة ومضت، ومال تأخر رده، وخصومة انتهت، وأذى نسيه صاحبه أو ظن أن الزمن طواه.

ثم يأتي اليوم الذي لا تبقى فيه الملفات منفصلة.

«فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته».

الحسنات التي تعب في جمعها تدخل الآن في أداء حقوق كان يستطيع أن يؤديها أو يتحلل منها حين كانت الدنيا دار عمل.

ثم تأتي العبارة التي ينبغي ألا يعبرها القلب بسرعة:

«فإن فنيت حسناته...»

فنيت.

لم يقل الحديث إن الصلاة لم تكن صلاة، ولا إن الصيام والزكاة لم تكونا حسنات. كانت حسنات؛ ولهذا أُخذ منها.

لكن المظالم دخلت الحساب حتى انتهى ما معه.

«فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه...»

ثم لا تنتهي القصة عند الصفر:

«أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار».

وهذا هو الذي يجعل المشهد شديد الخوف: لم يأت الرجل بلا عبادة. جاء بما جمع، ثم جاءت معه حقوق عباد الله.

قد يقف الإنسان طويلًا بين يدي الله في صلاة، ثم يخرج بلسان يجرح به عبدًا من عباده. وقد يبذل في باب خير، ثم يبقى في ذمته حق يقدر على رده. وقد يحرص على صورة تدينه، ثم لا يحرص بالقدر نفسه على أن يأمن الناس من ظلمه.

ليس المقصود أن حقوق الخلق أعلى من حق الله، ولا أن العبادة الظاهرة لا قيمة لها. الحديث نفسه جاء بالصلاة والصيام والزكاة حسنات يؤخذ منها؛ لكنه لم يجعل ظلم الناس خارج الحساب.

وكان السؤال منذ البدء: من يملك أن يسمّي؟

فيأخذ النبي ﷺ كلمة المفلس من الحساب الذي تعرفه الأسواق، ويردها إلى حساب الآخرة.

قد يكون في يدك مال، وفي صحيفتك صلاة وصيام وزكاة، ثم تكون هناك ديون من نوع لا يظهر في كشف الحساب الذي تفتحه في الدنيا.

حين يضل السعي وصاحبه يظن أنه يحسن

ثم يضع القرآن أمام القلب مرآةً حاكمة تمنعه أن يطمئن إلى كثرة الحركة وحدها.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 103-105].

وسياق الآيات صريح في قوم كفروا بآيات ربهم ولقائه؛ فلا يصح أن تُنزَّل أحكامها على كل مسلم أخطأ في اجتهاد أو قصر في عمل.

لكنها تكسر وهمًا لا يجوز للمؤمن أن يأمنه: أن يجعل كثرة سعيه، أو رضاه عن نفسه، أو إحساسه بأنه يحسن، دليلًا على صحة الطريق من غير أن يزنه بهدى الله.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

ولهذا كان النور شيئًا يُتبع، لا زينةً تضاف إلى طريق صنعناه لأنفسنا.

الخوف الصحيح لا يجعلك تشك مرضيًا في كل طاعة. يجعلك أبقى تحت هدى الله، أسرع رجوعًا إذا بان خطؤك، وأقل ثقةً بحكم نفسك إذا خالف ما جاء عن ربك.

ماذا يبقى إذا خسرت نفسك؟

ارجع الآن إلى الكلمة الأولى بعدما رأيت نعمةً قد تلهي، وأجلًا لا يؤخَّر، ودينًا ينقلب صاحبه إذا جعل الدنيا شرطًا، وحسناتٍ تذهب في حقوق العباد، وسعيًا لا يهدي نفسه بنفسه.

﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

يمكن أن يخسر الإنسان مالًا ثم يرزقه الله غيره، ويفوته باب ثم يفتح له باب آخر، وتنقص مكانته في أعين الناس ولا ينقص عند الله شيء.

لكن نفسه؟

إذا كانت الخسارة الأخيرة هي نفسك، فما الذي بقي لتربحه؟

ليس كل فوات هلاكًا، وليس كل حصول نجاة.

وقد تمتلئ الحياة من الخارج بأشياء يقال لها نجاح، بينما يمضي الإنسان في الداخل إلى خسارة لا يستطيع مال ولا اسم ولا جمهور أن يعوضها.

وقد يفوته من الدنيا ما يحب، ثم يحفظ الله له في الفوات نفسه دينه وقلبه ونفسه.

لهذا لا نحتاج هنا إلى كلمة أخيرة من عندنا.

يكفي حكم الله:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

[الزمر: 15].

القسم السابع

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾

ما الذي يبقى لك حين تترك كل شيء؟

إذا كانت الخسارة التي لا يعوضها شيء أن يخسر الإنسان نفسه، فثم سؤال آخر لا يتعلق بما تصنعه الأشياء فيك، بل بحقيقتها هي: ما الذي إذا خرج من يدي بقي لي عند الله؟ وما الذي إذا بقي في يدي إلى آخر العمر قد لا يبقى لي منه شيء؟

هنا لا يريد القرآن أن يزيد خوفك من الفقد فحسب. يريد أن يعلّمك أين تضع قلبك، وأين ترسل ما تحب، وكيف تتحول علاقتك بما أعطاك الله من إمساكٍ قلق إلى عبوديةٍ أهدأ: تشكر ما في يدك، وتنتفع به، ثم تعرف أن له بابًا إلى البقاء إذا قدمته عند ربك.

سأل رسول الله ﷺ أصحابه: «أيُّكم مالُ وارثِه أحبُّ إليه من مالِه؟»

قالوا: يا رسول الله، ما منا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه.

قال ﷺ: «فإنَّ مالَه ما قدَّم، ومالَ وارثِه ما أخَّر» رواه البخاري (6442).

من الطبيعي أن يشعر الإنسان أن المال الذي في يده هو ماله. يعرف رقمه، ويعرف ما يستطيع أن يشتري به، ويخطط لما سيفعله غدًا. لكن النبي ﷺ ينقل كلمة «ماله» إلى جهة أخرى.

ما أخّرته في يدك سيأتي يوم تتركه.

وما قدمته لله قد يكون هو الذي سبقك إلى الموضع الذي ستحتاجه فيه أكثر.

ولهذا جاء في الحديث الآخر: «يتبع الميتَ ثلاثةٌ: فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجع أهلُه ومالُه ويبقى عملُه» رواه البخاري (6514) ومسلم (2960).

ثلاثة خرجوا معه.

ثم رجع اثنان.

وبقي واحد.

لا يذم الحديث الأهل، ولا يحقر المال. كلاهما من نعم الله، وكلاهما قد يكون بابًا إلى رضاه. لكنه يكشف حدَّ الصحبة.

هناك محبوب يصحبك إلى باب.

وهناك شيء يدخل معك.

وقد يرى الإنسان معنى الحديث في جنازة قبل أن يقرأه في كتاب. يسير أهل الميت معه، ويصل المال إلى حد لا يستطيع أن يتبعه بعده، ثم يعود الناس إلى بيوتهم. أشياء ظل صاحبها سنوات يقول عنها: بيتي، مالي، عملي، اسمي؛ ثم جاء موضع لم يعد يستطيع أن يحمل معه منه شيئًا إلا ما صار عملًا بينه وبين الله.

وعند هذا الحد تأتي آية تجعل المعنى كله في ميزان واحد:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: 96].

قف عند الجهتين.

﴿مَا عِندَكُمْ﴾ [النحل: 96].

ثم:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النحل: 96].

المشكلة ليست أن ما عندك شر. قد يكون حلالًا طيبًا، وبيتًا يضم من تحب، وصحةً تفرح بها، ومالًا وسّع الله به عليك. لكن فوق كل نعمة دنيوية كلمة لا تستطيع أن تهرب منها:

﴿يَنْفَدُ﴾ [النحل: 96].

وفي الجهة الأخرى كلمة يحتاجها القلب حتى لا يعيش مذعورًا من كل فوات:

﴿بَاقٍ﴾ [النحل: 96].

ليس كل ما خرج من يدك قد انتهى.

قد يبدأ بقاؤه يوم خرج لله.

الشيء الذي يخرج منك وقد يبدأ بقاؤه

لذلك تتكرر في القرآن لغة التقديم.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: 12].

للغد شيء يُقدَّم.

وللإنسان عملٌ يقدمه أمامه، وآثارٌ قد تبقى بعد انقضاء عمره.

وفي حياتنا اعتدنا أن نعد المال الذي يخرج نقصًا في الحساب. وهذا صحيح في الحساب القريب: كان الرقم أكبر، ثم صار أقل. لكن الوحي يفتح حسابًا آخر لا تراه العين في اللحظة نفسها.

قد تخرج صدقة من يدك، فينقص ما تستطيع أن تنفقه اليوم، لكنك لم تلقها في فراغ.

وقد تخرج ساعة من وقتك في تعليم أو صلة رحم أو تفريج كربة، فلا تعود الساعة إليك، لكن الله كتب ما قدمت.

وقد تترك شيئًا تحبه لله، فلا يصفق لك أحد، ولا يظهر على وجهك أثر مادي سريع، لكنك أرسلت أمامك شيئًا تعرف عند من وضعته.

وهذا يغير معنى الفقد نفسه. لا يعود القلب يسأل دائمًا: كم بقي في يدي؟ بل يتعلم سؤالًا آخر: كم صار لي عند الله؟

ولا يعرف مقدار ما عند الله، ولا يزكي نفسه بأنه قُبل منه كل ما قدم، لكنه يعرف إلى من رفعه، ويرجو رحمته، ويعلم أن ربه لا ينسى.

وقد يكون أجمل ما في هذه العبودية أن العبد لا يستطيع أن يحفظ عمله بنفسه. بعد أن يفعل ما يستطيع، لا يبقى له إلا الافتقار: يا رب، هذا منك أصلًا، وأنت الذي أعنتني عليه، فتقبله مني ولا تكلني إلى عملي.

حين يكون رأس مالك صحتك ووقتك

وليس الذي ينفد مالًا فقط.

قال رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ**» رواه البخاري (6412).

الصحة لا تصدر صوتًا كل صباح لتخبرك أنها ما زالت عندك. والفراغ قد يبدو مساحة خالية تبحث عما تملؤها به. ولهذا قد يمر الاثنان على الإنسان وهما من أثمن ما في يده، ثم لا يعرف مقدار النعمة إلا حين يضيق الجسد أو يزدحم العمر.

جسد يستطيع أن يقوم.

وعين تستطيع أن تقرأ.

وساعة تستطيع أن تجلس فيها مع كتاب الله.

وطريق تستطيع أن تمشيه إلى خير.

وباب تستطيع أن تطرقه الآن، وربما لا تملك بعد سنوات القوة نفسها ولا الوقت نفسه.

هنا يصبح ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ قريبًا جدًا.

لا لأن القرآن يريد منك أن تعيش مترقبًا زوال الصحة، بل لأن شكر النعمة يبدأ من معرفة أنها ليست مضمونة لك إلى الأبد.

وقد يفتح الله لك صباحًا عاديًا لا ترى فيه شيئًا استثنائيًا: جسد معافى، وقت قبل موعدك، مصحف قريب، أهل تستطيع برهم، مال تستطيع أن تنفق منه. قد يكون هذا الصباح نفسه خزينة كاملة من الباقيات، إن عرفت كيف تفتح أبوابها.

فالافتقار لا يعني أن تنظر إلى النعمة بعين الخوف فقط. يعني أن تراها عطية لا حقًا مكتسبًا، وأن تقول بقلبك: يا رب، كما أعطيتني القدرة فاستعملني فيما تحب قبل أن تنفد مني.

وإذا كان الوقت والصحة رأس مال ينفد، فإن المال أوضح ما يُختبر فيه القلب: أَيَبْذُلُهُ وهو يعلم أنه هو الفقير إلى ربه؟

يد تعطي، وقلب يفتقر

وحين يأتي القرآن إلى المال، لا يقول للعبد فقط: أعط.

يخبره أولًا من الذي أعطاه.

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۗ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 15-17].

وفي ترتيب الآيات رحمة ظاهرة.

قال:

﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ [التغابن: 16].

الشيء يخرج من يدك، والقرآن يقول إن الخير لنفسك.

ثم يسمّي ما تقدمه:

﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [التغابن: 17].

وهو الغني الذي أعطاك المال أصلًا.

ثم ماذا وعد؟

﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [التغابن: 17].

لم يعد الأمر مجرد أن تستعيد ما أنفقت. هناك مضاعفة، وهناك ما هو أعظم من المال كله: مغفرة.

ثم يختم الله باسمين يحتاجهما القلب الذي يخاف أن يضيع ما قدم:

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17].

شكور.

أنت تعطي من عطائه، ثم يشكر لك ما أعطيت، أي: يثيبك عليه ويتفضل عليك بقبوله ومضاعفته.

وتعمل بتوفيقه، ثم يثيبك على ما وفّقك إليه.

وتأتيه بعمل ناقص من عبد ناقص، ثم ترجو من حلمه ومغفرته ما لا تملكه بعملك وحده.

أي موضع أوسع للافتقار من هذا؟

يدك تعطي، لكن قلبك لا يقول: أنا أغنيت أحدًا عن الله.

بل يقول: أنا المحتاج.

أنا المحتاج أن يقبل الله، وأن يضاعف، وأن يغفر، وأن يجعل ما خرج مني باقيًا لي عنده.

ولهذا قال سبحانه في موضع المال والبخل:

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ [محمد: 38].

هذه الجملة تحمي القلب حتى وهو يبذل.

هو الغني قبل أن تعطي، والغني بعد أن تعطي؛ وأنت الفقير قبل العمل وبعده.

فقير إلى رزقه حتى تملك.

وفقير إلى توفيقه حتى تعطي.

وفقير إلى قبوله بعد أن تعطي.

وفقير إلى رحمته يوم تلقاه.

ولهذا يجيء المعنى نفسه في كل مجاهدة لله، لا في المال وحده:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6].

تطيع، فنفع الطاعة لك.

وتجاهد نفسك، فنفع المجاهدة لك.

وتبقى أنت بعد ذلك كله عبدًا لا يستغني بعمله عن ربه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لن ينجي أحدًا منكم عمله». قال رجل: ولا إياك يا رسول الله؟ قال: «ولا إياي، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سددوا» رواه مسلم (2816).

هذه ليست دعوة إلى قلة العمل.

إنها تحرير للعمل من العجب.

اعمل، وسدد، وابذل، وقدّم؛ ثم لا تجعل عملك حاجزًا بينك وبين الافتقار.

كلما زاد ما تقدم، ازدد علمًا بأن الرحمة هي التي تحملك إلى النجاة.

وهذا الافتقار لا يمنع العبد أن يرجو ربح سعيه؛ لكنه يعيد تعريف الربح نفسه، فيرجو ما وعد الله به العاملين من فضله.

تجارة لا تبور

والقرآن لا يطلب من الإنسان أن يطفئ لغة الربح التي يعرفها، بل يأخذها إلى موضع أصدق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29-30].

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: 29].

هنا دخل الرجاء إلى لغة التجارة.

تلاوة كتاب الله، وصلاة، وإنفاق سرًا وعلانية؛ أعمال قد لا يراها السوق أصلًا، لكن القرآن يسمي وراءها تجارة.

وما الذي يرجونه؟

ليس فقط أن يوفيهم أجورهم:

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: 30].

العبد يأتي بعمل محدود، والرب يفتح فوق الأجر فضلًا.

ويجيء الختام مرة أخرى:

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 30].

كأن القلب كلما خاف من نقص عمله رُد إلى المغفرة، وكلما خاف أن يضيع ما قدم رُد إلى الشكر.

وفي موضع آخر يقول الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف: 10].

التجارة هنا لا تعدك فقط بزيادة.

تعدك بنجاة.

ولهذا لا يعود معنى الربح في القرآن مجرد أن تدخل عليك أشياء أكثر، بل أن تلقى الله وأنت أرجى للنجاة، وأقرب إلى مغفرته، وأغنى بما عنده عما يفنى.

الصفقة التي وعد الله بها الجنة

ثم يبلغ القرآن بلغة البيع موضعًا لا يملك القلب أمامه إلا أن يعرف قدر من يتعامل معه.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111].

الأنفس والأموال.

أعز ما يقول الإنسان عنه: لي.

ثم يجعل الله العوض:

﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾ [التوبة: 111].

ويؤكد الوعد، ثم يقول:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [التوبة: 111].

هذه الجملة وحدها تكفي قلبًا كثير الخوف من الضياع.

قد تخاف أن تعطي ولا ترى ثمرة.

وقد تخاف أن تصبر ولا يأتيك ما تمنيت.

وقد تخاف أن يفوتك شيء لأنك تركته لله.

لكن مع من كانت الصفقة؟

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [التوبة: 111].

لا أحد أصدق منه وعدًا.

ولا أحد أوسع منه فضلًا.

ولا أحد أغنى عنك، ومع ذلك يفتح لك باب أن تقدم إليه، ثم يجعل الجنة عوضًا، ثم يأمرك لا بالحزن على ما خرج، بل بالفرح:

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

كأن القرآن يقول للقلب الذي لا يرى إلا ما نقص من يده: انظر إلى من أخذ، وانظر إلى ما وعد.

ليس كل خروج فقدًا.

وقد يكون بعض ما خرج لله هو أصدق ما بقي لك.

خيرٌ أملًا

ومع كل هذا لا يريد القرآن أن يجعل المؤمن غريبًا عن نعمته، كأنه لا يستطيع أن يحب مالًا أو أهلًا أو بيتًا لأنه يعرف أنها تفنى.

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46].

سماها زينة.

فلا حاجة إلى أن تكذب جمال النعمة حتى تصح عبادتك.

أحب أهلك، واشكر بيتك، وانتفع بمالك، وفرح بما أحل الله لك.

لكن لا تجعل الزينة آخر موضع للأمل.

قال سبحانه: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

> ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

هذه ليست كلمة عن الحساب فقط.

إنها كلمة للقلب الذي يحتاج شيئًا يرجوه.

كم من أمل علقه الإنسان بشيء في الدنيا، ثم تغيرت الظروف قبل أن يصل إليه. وكم من باب ظنه ثابتًا ثم أغلق. وكم من شيء حصل عليه، ثم لم يجد فيه ما كان يتخيله قبل أن يحصل.

أما ما عند الله، فليس خيرًا ثوابًا فقط.

هو خير أملًا.

أن يكون لك عند ربك عمل ترجوه.

وتوبة ترجوه أن يقبلها.

وصدقة نسيتها أنت ولم ينسها هو.

وذكر قلته في طريق ولم يسمعه أحد.

وحق أديته لله.

وقلب جاهد شحه ثم أعطى.

ووقت قدمته في طاعة ثم مضى من عمرك.

كل ذلك لا يجعلك مستغنياً بعملك، بل يزيدك رجاءً في رب العمل.

وقد قال الله قبلها في السورة نفسها:

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: 44].

فالخير في النهاية ليس لأنك أحسنت حفظ ما في يدك وحدك.

الخير أن يكون لك رب تتولاه، وتضع عنده رجاءك، وتعلم أن ما عنده لا ينفد.

ولهذا تعود الكلمة الأولى وقد تغير معناها في القلب:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: 96].

لا لتكره ما في يدك.

بل لتعرف أين يطمئن قلبك إذا خفت عليه.

ولا لتعيش منتظراً الفقد.

بل لتعرف أين ترسل ما تحب قبل أن يأتي يوم لا تستطيع فيه أن تقدم شيئاً.

ولا لتظن أن عملك هو الذي يغنيك.

بل لتعمل وأنت أشد افتقارًا إلى الغني، وأوسع رجاءً في الشكور، وأشد شوقًا إلى رحمته ومغفرته.

قد ينفد ما عندك.

لكن باب الله لا ينفد.

وقد تنتهي قدرتك على العمل.

لكن ما قدمته عنده لا يضيع.

وقد تخرج أشياء من يدك.

فتكتشف يومًا أنها كانت هي التي بقيت لك.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: 96].

القسم الثامن

﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾

لماذا تخطئ العين ولو عرف القلب؟

بعد أن اتسع الميزان في القلب يعود الامتحان إلى موضع بدأ منه كثير من الوهم: العين. لكن العودة ليست إلى النقطة الأولى؛ فالذي يرى الآن قد عرف أن الاسم لله، وأن الفلاح طريق وعبودية، وأن ما في اليد ينفد، وأن النفس قد تربح أو تخسر وراء ما تراه الصورة.

ترى كثرة، وزينة، ووجوهًا تلتفت إليها الأنظار، وأبوابًا تفتح لبعض الناس، وأرقامًا تصعد، وأشياء تتكرر أمامك حتى تكاد تقول لك من كثرة حضورها: هذا هو المهم.

العين سريعة.

تصلها الصورة قبل أن يستحضر القلب كل ما تعلمه.

ولهذا لا يكتفي القرآن بأن يصحح حكمًا ذهنيًا، بل يدخل إلى موضع أدق: إلى الشيء الذي يعجبك.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100].

قد تعرف أن الخبيث خبيث.

ومع ذلك:

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ [المائدة: 100].

فالقرآن لا يعاملك كأن المعرفة تمحو أثر الصورة من النفس في لحظة؛ قد يعجبك كثيرٌ مما لا ينبغي أن يكون حاكمًا عليك، وقد ترى عددًا كبيرًا، أو حضورًا واسعًا، أو نتيجة تلفت النظر، فيتحرك فيك الإعجاب قبل أن تستدعي ميزانك كله.

ليست المشكلة في أن العين رأت الكثرة.

المشكلة أن تتحول الكثرة من وصف إلى حكم.

أن تقول: هذا أكثر، فهذا وصف.

ثم تنتقل من غير أن تشعر من وصف الكثرة إلى الحكم بالقيمة: فتظن أن الأكثر انتشارًا هو الأفضل، أو أن الأوسع حضورًا هو الأصدق، أو أن ظاهر النجاح دليل على محبة الله، أو أن طريق صاحبه أحق بأن يُتمنّى.

ويعود الأمر نفسه في موضع النظر والحكم:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100].

وتقف التقوى هنا بين العين والحكم. لا تمنعك أن ترى الكثرة، لكنها تمنع ما تراه من أن يستولي على الاسم كله.

والقلب الذي يتربى بالوحي لا يصير أعمى عن الواقع؛ يصير أقدر على أن يراه في حجمه.

ما لا تراه الصورة

وفي السنة يأتي تصحيح لا يهدم قيمة الظاهر، لكنه يضع أمام القلب ما هو أعمق منه.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» رواه مسلم (2564).

الصورة تصل إليك سريعًا.

والمال يمكن عده.

والهيئة تظهر.

أما القلب فلا تفتحه النظرة الأولى.

والعمل نفسه قد يراه الناس ولا يرون نيته، ولا ما قاوم صاحبه قبل أن يفعله، ولا ما تركه لله وهو قادر عليه، ولا ما انكسر في داخله ثم أصلحه ربه.

فتتعلم العين شيئًا من التواضع.

ليست كل حقيقة في مجالها.

قد تعرف أن رجلًا واسع المال، ولا تعرف ما بينه وبين الله.

وقد ترى إنسانًا لا يلتفت إليه المجلس، ولا تعرف ما عند الله له.

قال النبي ﷺ: «رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه» رواه مسلم (2622).

مدفوع بالأبواب.

الصورة الاجتماعية تكاد تكون كاملة: لا يُحتفى به، ولا تُفتح له الأبواب، وربما مر في المجلس من غير أن تتبعه العيون.

ثم يفتح النبي ﷺ بابًا لا تملكه تلك العيون:

«لو أقسم على الله لأبرَّه».

ما أبعد المسافة بين باب دفعه الناس عنه، ومنزلة قد تكون له عند ربه.

وليس المقصود أن كل مجهول عند الناس وليٌّ، ولا أن الهيئة المتواضعة فضيلة في ذاتها. المقصود أعمق: لا تظن أن ما تراه من ظاهر الإنسان يكشف لك حقيقته الكاملة.

فالقرآن قد رد أصل الكرامة إلى موضع آخر:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

عند الله.

وهذه الإضافة وحدها تكسر في القلب أشياء كثيرة.

كم مرة ارتفع إنسان في عينك لأن الناس رفعوه؟

وكم مرة صغر آخر عندك لأن المجلس لم يلتفت إليه؟

وكم مرة احتجت أن تتذكر أن ميزان السماء لا ينتظر ترتيب المقاعد في الأرض؟

حين تتحول النعمة إلى شهادة

وقد يكون خداع العين أدق من المكانة.

قد ترى إنسانًا قد وسّع الله عليه في المال والبنين والفرص، فتنتقل النفس من شكر النعمة له إلى تفسير منزلته عند الله بها.

فيأتي القرآن إلى الظن نفسه:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾

[المؤمنون: 55–56].

الإمداد واقع.

المال موجود.

والبنون نعمة.

لكن القفزة التي يهدمها القرآن هي أن يتحول العطاء إلى شهادة بأن صاحبه في مقام المسارعة في الخيرات.

ليس كلُّ بسطٍ للرزق علامة رضا، وليس كلُّ تضييقٍ علامة سخط.

وهذا من أرحم ما يتعلمه القلب؛ لأن الإنسان لا يخطئ في تفسير غيره فقط، بل قد يخطئ في تفسير نفسه.

إذا اتسعت عليه الدنيا، ظن أن الطريق كله قد زُكّي له.

وإذا ضاقت، تسلل إليه سؤال مؤلم: أأنا مهان عند الله؟

والقرآن لا يسلمه لهذا الميزان.

ثم لا يترك كلمة المسارعة بلا موضعها الحق، بل يقول بعدها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 57-61].

في أول المقطع كان السؤال الوهمي:

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؟

ثم جاء الحكم:

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: 61].

اللفظ نفسه، لكن العين التي تقرأ صارت ترى شيئًا آخر.

هناك خشية.

وإيمان.

وتوحيد.

وعطاء.

وقلب يعمل ثم يبقى وجلًا لأنه راجع إلى الله.

فالنعمة تُشكر، لكن لا تُستعمل شهادةً على ما لم يشهد الله به.

والضيق يُصبر عليه، لكن لا يُستعمل حكمًا بأن الله ترك عبده.

من عرف أن ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ﴾ لم يعد بسط ما في اليد قادرًا وحده أن يخبره بما عند الله.

حتى الخير الذي تراه لا تعرف كل وزنه

ثم يزداد تواضع العين خطوة أخرى.

فقد يكون الشيئان كلاهما طيبين، وكلا العملين صالحين، ومع ذلك لا يكون وزنهما واحدًا عند الله.

قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10].

أنفق هؤلاء، وأنفق أولئك.

وقاتل هؤلاء، وقاتل أولئك.

والعمل في الصورة من جنس واحد، لكن الله جعل للسابقين درجة أعظم، ثم حفظ للآخرين أصل الفضل:

> ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: 10].

لماذا؟

لأن العمل لا يعيش خارج زمانه وسياقه وكلفته وقلب صاحبه.

قد تعطي يدان القدر نفسه، ويكون وراء إحداهما من الحاجة والمجاهدة والسبق ما لا تراه العين.

وقد يفعل اثنان العمل نفسه، ويكون أحدهما فعله حين كان الطريق موحشًا لا يحمل عليه جمهور، والآخر فعله بعدما صار الخير ظاهرًا مألوفًا.

ليس هذا بابًا لتشك في الناس، بل بابًا لتتواضع في حكمك.

أنت ترى الفعل.

والله يقول:

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10].

والله يعلم حقيقة السعي وما وراء صورته، ومن ثم تتعلم العين حدها: لا تدّع لنفسك علم الوزن كله لأنك رأيت الصورة.

يوم خرج قارون في زينته

ثم يجمع القرآن الكثرة والمال والزينة والرغبة والمقارنة في مشهد واحد.

لم يحتج قارون إلى أن يشرح للناس كم يملك.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ﴾ [القصص: 79].

في زينته.

وكان المشهد كافيًا ليتكلم.

هناك أشياء تدخل القلب من العين قبل أن تصوغ النفس حجتها.

يرى الإنسان بيتًا، أو مالًا، أو حضورًا، أو حياةً تبدو مكتملة من الخارج؛ وقبل أن يقول: لعل وراء الصورة ما لا أعرف، يخرج من أعماقه شيء أقدم من التحليل:

ليت لي مثل هذا.

وهذا بالضبط ما قاله الذين أرادوا الحياة الدنيا:

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79].

﴿يَا لَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 79].

لم يقف المشهد عند العين.

دخل إلى الرغبة.

فما تراه طويلًا قد يصبح ما تريده، وما تريده مرارًا قد يبدأ في إعادة ترتيب قلبك من الداخل.

ثم لم يقولوا فقط: عنده مال كثير.

قالوا:

﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79].

هنا وقع الخطأ الأكبر.

الثروة كانت حقيقة.

الزينة كانت حقيقة.

لكنهم جعلوا الجزء المرئي قادرًا على أن يخبرهم بحظ الإنسان كله.

وفي الجهة الأخرى وقف قوم رأوا المشهد نفسه.

لم تكن أعينهم مغلقة.

ولم يكن عندهم عرض أرضي أجمل ينافس عرض قارون.

كان عندهم علم.

قال الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: 80].

العين أمامها زينة.

والعلم يقول:

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: 80].

وفي ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ تجتمع معانٍ صار القلب يعرفها: ما عند الله أبقى وخير أملًا، والفلاح لا يُقاس بما تمتلئ به اليد، والخسر ليس مجرد ما خرج منها. يدخل الإنسان إلى المشهد ومعه وعد الله.

الذين أوتوا العلم لم ينكروا أن الزينة تسر النظر.

لم يقولوا لقومهم: ما ترونه لا وجود له.

قالوا فقط ما يعيد الصورة إلى حجمها:

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: 80].

هذه هي البصيرة التي يحتاجها القلب: لا أن يكذب ما يرى، بل أن يراه بميزان الوحي.

فالزينة حاضرة أمام العين.

وثواب الله غيب.

والقلب المؤمن يتعلم أن لا يجعل الحاضر المرئي يلغي الغيب الذي أخبر به ربه.

ثم جاء الصباح الذي لم يكن أصحاب التمني يتوقعونه.

قال الله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81].

الدار التي كانت جزءًا من الزينة دخلت معه في الأرض.

والذي كان يملأ العين لم يستطع أن يحمي صاحبه.

لكن القرآن لم يترك المشهد عند قارون.

عاد إلى العيون التي تمنّت.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: 82].

بالأمس:

﴿يَا لَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 79].

واليوم:

﴿وَيْكَأَنَّ﴾ [القصص: 82].

ما الذي تغير؟

لم يتغير المال فقط.

تغيرت العين التي كانت تنظر إليه.

بالأمس رأوا البسط فقالوا: ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

واليوم عرفوا:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ﴾ [القصص: 82].

البسط رزق.

والبسط والتقدير كلاهما يجريان بحكمته.

ولا هذا وحده شهادة فلاح، ولا ذاك وحده شهادة خسران.

ثم عادوا إلى الاسم الذي بدأ به الكتاب كله:

﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: 82].

قبل يوم كانوا يقولون عن قارون:

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79].

ثم عرفوا أن الحظ الذي ملأ العين لم يكن هو الفلاح.

لكن أدفأ كلمة في رجوعهم ليست عن قارون.

هي عن أنفسهم:

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [القصص: 82].

سمّوا نجاتهم من ذلك التمني منّة من الله.

ويبلغ المشهد موضعه الأعمق.

أن ترى الأشياء على حقيقتها ليست مهارة عقلية تستغني بها عن ربك.

هي أيضًا منّة.

من منّة الله أن يريك بريق شيء، ثم لا يترك قلبك أسيرًا له.

ومن منّته أن يكسر في داخلك أمنية لو استقرت ربما قادتك إلى طريق لم تكن ترى آخره.

ومن منّته أن يريك من القرآن مصير صورة قبل أن تحتاج أنت إلى أن تتعلم بالصدمة.

كم من شيء تمنّاه الإنسان ثم عرف بعد سنوات أن من رحمة الله أنه لم يُعطه إياه.

وكم من باب ضاق به حين أُغلق، ثم عرف لاحقًا أن الإغلاق كان حفظًا.

وكم من صورة رآها كاملةً من الخارج، ولو علم ما وراءها ما تمنى مكان صاحبها ساعة.

لهذا لا يقول المؤمن بعد هذا المشهد: أنا صرت أذكى من أن تخدعني الدنيا.

بل يقول بقلب أشد افتقارًا:

يا رب، كما مننت على أولئك حين صححت أعينهم، فلا تكلني إلى عيني وحدها.

عين تتعلم أن ترى مع الوحي

البصيرة التي يبنيها القرآن ليست عينًا تكره الجمال، ولا قلبًا يشك في كل نعمة، ولا إنسانًا يفسر نجاح الناس بأنه استدراج من غير علم.

هذه كلها أخطاء جديدة لو وقع فيها العبد ظن أنه نجا من الخطأ القديم.

البصيرة أهدأ من ذلك.

أن ترى المال مالًا، والنجاح نجاحًا في موضعه، والجمال جمالًا، والمكانة أثرًا اجتماعيًا حقيقيًا، ثم لا تسمح لأي واحد منها أن يقول أكثر مما يعلم.

أن تقول لمن وسّع الله عليه: بارك الله له، من غير أن تجعل سعته شهادةً بما عند الله.

وأن ترى من ضاقت عليه الدنيا، فلا تضيف إلى ألمه حكمًا لم يقله الله عنه.

وأن ترى عملًا صالحًا، فتفرح به، ولا تدعي أنك أحطت بما بين صاحبه وربه.

وأن ترى شيئًا كثيرًا يعجبك، ثم يبقى في قلبك متسع لتسمع:

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ [المائدة: 100].

وعندئذ لا تدخل العين إلى المشهد وحدها؛ تدخل ومعها كلمات صارت حاضرة في القلب: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ إذا ملأت الزينة النظر، و﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ إذا أغرت الكثرة، وصورة قوم قارون إذا بدأت الأمنية تقول: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا﴾.

عندها لا يصبح الوحي معلومة يعود إليها بعد أن يفرغ من الحياة.

يصير نورًا يدخل معه إلى الحياة وهي تحدث.

وسيأتي يوم لا تعود فيه الحقيقة مستورة خلف صورة، ولا العمل خلف ظاهر، ولا الوزن مؤجلًا.

يوم يظهر الكتاب، ويقام العدل، وينكشف للناس ما كان الربح وما كانت الخسارة.

هناك لا تحتاج العين إلى أن تتعلم من جديد.

هناك ينكشف الحكم.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: 9].

القسم التاسع

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾

حين ينكشف الحكم

تتعلم العين في الدنيا ألا تستقل بما ترى، وأن تدخل إلى الصورة ومعها ما قاله الله. ثم يأتي يوم لا تعود فيه الصورة محتاجةً إلى تصحيح، ولا الميزان إلى تذكير، ولا الحقيقة مستورةً خلف زينة أو عدد أو انطباع.

يوم ينكشف الحكم.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: 9].

سمّى الله اليوم نفسه من لغة الربح والخسارة التي صاحبت هذا الميزان كله: ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۖ﴾. هناك لا يبقى الفلاح اسمًا يتنازعه الناس، ولا الخسران كلمة يطلقها من رأى جزءًا من الطريق، ولا الكثرة قادرةً على أن تصنع لنفسها وزنًا، ولا الفوات قادرًا على أن يقول: انتهت القصة. ما كان قابلًا للالتباس في الدنيا يخرج يومئذ من الاحتمال إلى الكشف؛ الاسم، والمال، والسعي الخفي، وحقوق الناس، والصورة التي أعجبت العين، والشيء الذي ظنه صاحبه فواتًا أو ربحًا. لا يبقى شيء من ذلك سؤالًا؛ يظهر الجواب.

ومع ذلك لم يفتح الله الآية بالحسرة وحدها. في الآية نفسها إيمان، وعمل صالح، وتكفير للسيئات، وجنات، وخلود، ثم الحكم:

> ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: 9].

من أول المشهد يجتمع الخوف والرجاء. ليس يوم التغابن يوم انكشاف الخسران فقط؛ إنه كذلك يوم يظهر فيه الفلاح الذي كان المؤمن يرجوه وهو يعمل في الغيب.

الكتاب الذي لا ينسى

وفي ذلك اليوم لا يبقى العمل معنًى يتحدث عنه الإنسان من ذاكرته.

يأتي كتاب.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 19-24].

كتاب في اليد.

وصاحبه لا يريد أن يخفيه:

﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 19].

كم من شيءٍ في هذا الكتاب مرّ في الدنيا ولم يصنع حول صاحبه مشهدًا.

ركعتان في بيتٍ هادئ، واستغفار بعد زلة لم يعرفها الناس، ومال خرج سرًّا، وحق أدّاه صاحبه وهو قادر على المماطلة، وكلمة حبسها عن مسلم، وطاعة ثبت عليها في يوم لم يجد فيه حرارة البداية.

قد ينسى الإنسان كثيرًا من هذه اللحظات، وقد يمر عليها بعد أيام كأنها لم تكن حدثًا كبيرًا. لكن الله يقول عن يوم الكتاب:

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ﴾ [الكهف: 49].

حاضرًا.

ما خرج من ذاكرتك لم يخرج من علم الله.

وما لم يعرفه الناس لم يحتج إلى معرفتهم حتى يُكتب.

وما كنت تخاف أن يضيع لأن نتيجته لم تظهر، قد تلقاه في موضع لم يعد فيه خفاء.

ثم يقول صاحب الكتاب:

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 20].

كان اللقاء حاضرًا في قلبه قبل أن يصير حاضرًا أمام عينه.

ولهذا عاش أيامه وهو يعرف أن لها جهةً بعد انقضائها.

ثم تأتي العبارة التي تجمع العمر كله:

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24].

الأيام التي كانت تمضي ولا تعود، والتي خوّفت سورة العصر القلب من ذهابها، صار لها هنا اسم آخر:

الأيام الخالية.

ذهبت الأيام.

وبقي ما أُسلف فيها.

كم يصبح واضحًا هنا معنى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

نفد اليوم نفسه.

وبقي ما كان لله فيه.

وفي الجهة الأخرى كتاب أيضًا.

لكن صاحبه لا يقول: اقرؤوا.

قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 25-29].

هو الذي يقول الآن:

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ۜ﴾ [الحاقة: 28].

وهو الذي يقول:

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 29].

لا يحتاج أحد في تلك اللحظة أن يشرح له حدود المال أو المكانة.

انكشف الحد بنفسه.

الشيئان اللذان كانا يستطيعان أن يملآ عينًا في الدنيا لا يستطيعان أن يمحوا سطرًا واحدًا من الكتاب.

ويعود السؤال في صورة أشد انكشافًا:

ماذا ينفع أن يبقى المال، إذا كانت النفس هي التي ضاعت؟

ميزان لا يضيع عنده مثقال حبة

ثم لا يقف الحكم عند الكتاب.

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

أول ما يملأ القلب هنا ليس الثقل والخفة، بل العدل.

ثم يقول: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

شيء صغير إلى هذا الحد يأتي به الله.

فتصبح الطاعات الصغيرة التي كان الإنسان يستهين بها أوسع رجاءً في قلبه، من غير أن يغتر بها.

قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» رواه البخاري (6682) ومسلم (2694).

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، ثم ما هو أدفأ من الثقل نفسه: «حبيبتان إلى الرحمن».

يفتح النبي ﷺ في جملة واحدة خفة الذكر على اللسان، وثقله في الميزان، ومحبته عند الرحمن.

وفي صحيح مسلم (223): «**والحمد لله تملأ الميزان**».

الميزان الذي يخيف القلب من نفاد الحسنات في حديث المفلس، هو نفسه الميزان الذي يفتح له الرجاء في كلمة ذكر صادقة.

فلا يعيش المؤمن بين الخوف والرجاء كأن أحدهما يلغي الآخر: يخاف أن يأتي بمظالم تلتهم ما جمع، ويرجو أن يثقل الله ميزانه بطاعات قد نسيها هو ولم ينسَها ربُّه، ويعرف بعد ذلك كله أنه لا يدخل الجنة استغناءً بعمله عن رحمة الله. يعمل، ويخاف، ويرجو، ويفتقر.

حين يعود اسم الفلاح أمام الميزان

وفي سورة المؤمنون يعود الاسم نفسه عند الميزان.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون: 102-103].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: 102].

كم قطعت هذه العبارة من الطريق منذ أول الكتاب.

كانت في أول البقرة فوق قومٍ ﴿عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وكانت في النور فوق قلب يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وكانت في الحشر بعد مجاهدة الشح.

وتظهر أخيرًا عند الميزان.

لم تكن تلك الأوصاف صورًا منفصلة، بل كانت أجزاءً من معنى واحد يتكامل.

كانت تبني إنسانًا سيأتي بهذا كله إلى يوم الوزن.

وفي الجهة الأخرى يعود التعبير نفسه: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. ليس الخسر هنا فوات شيء خارج الإنسان، هو نفسه الذي انكشف خسرانه.

ثم تذكر السورة قومًا كانوا في الدنيا من أهل الدعاء والافتقار:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: 109].

قوم كانت لغتهم: ربنا، فاغفر لنا، وارحمنا.

ليس في الدعاء استغناء بعمل.

بل إيمان، ثم طلب مغفرة ورحمة.

ومع ذلك جعلهم آخرون مادةً للسخرية:

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: 110].

كان في الدنيا من يضحك ومن يُضحك منه، وكانت العين الاجتماعية تستطيع أن توحي أن القوة في جهة والضعف في جهة، ثم جاء اليوم الذي لا يملك فيه المجلس اسم الفائز.

قال الله: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: 111].

﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. وقيل في يوم الزينة: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾؛ ويقول الله عن عباده الذين صبروا: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. عاد الاسم إلى صاحبه، وعاد الحكم إلى من يملكه.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾

وعند هذا الموضع يحتاج القلب إلى آية تجمع له النجاة كلها في تعريف واحد لا يلتبس.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

هذه هي الكلمة التي كانت الدنيا تتسع في استعمالها حتى تكاد تضيع حقيقتها.

ربح صفقة فيقال: فاز، وسبق خصمه فيقال: فاز، ونال منصباً فيقال: فاز؛ وهذه كلها أوصاف قد تصح في حدودها.

لكن حين يريد القرآن أن يضع أمام القلب الفوز الذي يستحق أن يحمل الاسم من غير قيد، يقول:

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

زُحزح عن النار، وأُدخل الجنة؛ لا يحتاج بعدها إلى شيء في الدنيا ليثبت أن حياته نجحت، ولا يستطيع ما فاته منها أن يسحب منه هذا الاسم.

قف عند ﴿زُحْزِحَ﴾.

النجاة من النار وحدها نعمة لا يستطيع القلب أن يحيط بها.

ثم لم تقف الآية عند النجاة:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [آل عمران: 185].

خوف بلغ حد النار، ورجاء بلغ باب الجنة، ثم الحكم الذي يستقر عنده كل ميزان:

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

وإذا استقرت هذه الآية في القلب، أعادت ترتيب أشياء كثيرة من غير أن يحتاج الإنسان إلى خصومة دائمة مع الدنيا.

يفرح بالنعمة ويعرف أنها ليست الفوز الأخير، ويحزن للفقد ويعرف أنه ليس الخسران الأخير، ويسعى ويتنافس ويبذل ويعمل وهو يعرف أين تقع الكلمة الكبرى.

ويصبح سؤال الحياة أشد بساطة وأشد رهبة في آن واحد:

هل يقودني هذا إلى أن أُزحزح عن النار وأُدخل الجنة؟

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

ومع ذلك لا يقف القرآن بالقلب عند النجاة والجنة وحدهما.

يرفعه إلى رب الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

جنات وأنهار وخلود ومساكن طيبة، ثم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أكبر.

كأن القلب بعد أن تعلّق بالجنة يُقال له: لا تجعل العطاء يحجب قلبك عن المعطي.

الجنة عظيمة، لكن فوق نعيمها أن يرضى الله عنك. ويبلغ التعلق بالله موضعًا آخر: لم تعد الغاية فقط أن أنجو أو أن أدخل الجنة، بل:

يا رب، أريد رضاك.

كم عاش الإنسان في الدنيا يتتبع رضا الناس: هل قبلوه؟ هل أعجبوا به؟ هل أحسنوا الظن بعمله؟ هل عرفوا قدر ما فعل؟

وكم تغير مزاجه بكلمة مديح أو لوم.

ثم يأتي اليوم الذي تنكشف فيه كل المقاييس، فيعرف أن الرضا الذي كان يستحق أن يعمر قلبه هو هذا:

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72].

أن يرضى عنك ربك الذي خلقك، هداك حين ضللت، وردك حين زللت، وأعانك حين ضعفت، وستر عليك ما لا يعرفه الناس، وقبل توبتك، وكتب ما خفي من سعيك، وشكر لك من عطائه ما قدمت.

ثم تبلغ الطريق، فلا يكون أعظم ما تلقاه شيئًا أعطاك إياه، بل رضاه عنك.

وفي السنة يصير هذا المعنى مشهدًا يسمعه القلب كأنه في الجنة نفسها. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» رواه البخاري (6549) ومسلم (2829).

والسؤال يأتي بعد أن دخلوا الجنة: «هل رضيتم؟» وماذا بقي لمن أُعطي الجنة حتى يطلبه؟ ثم يقول لهم ربهم: «أنا أعطيكم أفضل من ذلك»؛ حتى تأتي الكلمة التي لا يبقى بعدها خوف من زوال القرب: «أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا».

هنا تبلغ عبارة ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ تمام حرارتها. ليس الرضوان معنى بعيدًا فوق نعيم الجنة؛ هو أن يعلم العبد أن ربه رضي عنه، وأن هذا الرضا لا يعقبه سخط أبدًا.

ويقول سبحانه:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119].

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ هذه وحدها كافية أن يسكن القلب عندها طويلًا. ثم: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾. لا يبقى في القلب اعتراض على طريقه، ولا حسرة على شيء فاته، ولا سؤال: لماذا أعطيت فلانًا أكثر؟ ولماذا كان طريقي أشق؟ انكشفت الحكمة، وتم النعيم، ورضي العبد عن ربه، ورضي الرب عنه: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

حين يعود القلب كله إلى ربه

وعند هذا الموضع لا يبقى مسك الختام تعريفًا آخر للفلاح. يبقى نداءً للنفس التي مشت إلى ربها بين خوف ورجاء، وعملت وافتقرت، وزلّت فعادت، وقدّمت ورجت ما عنده.

هذه النفس لا ينتهي طريقها عند اسم يقوله الناس، ولا عند شيء من الدنيا ظل قلبها يخاف أن يفوته.

ينتهي عند ربها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27-30].

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية

- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية

- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر

- سلسلة حقوق وفضائل

- سلسلة طبائع النفس